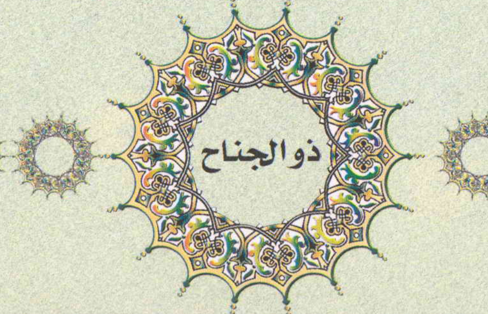
القول الثابت

دروس في عقائد الأمامية






شبكة الفكر
alfeker.net



دروس في عقائد الأماميّة





الناشر

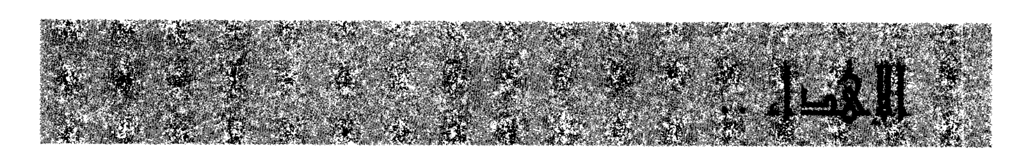
شركة ذو الجناح للإنتاج الفنّي

الكويت : ص ب (١٥٧٢٠) الدعيّة، هاتف : ٦٨٩٦٢٦٨



﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

روى فرات بن إبراهيم الكوفي في تفسيره ص ٢٢٠ :
بإسناده إلى ابن عبّاس في تفسير الآية ﴿بِالقَولِ الثَّابِتِ﴾
قال : بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام .



الإهداء

إلى سيّدي ومولاي ..

خليفةَ النّبيّ الأوّل ..

والصدّيق الأكبر ..

والفاروق الأعظم ..

وذي النّورَين الطّاهرَين ..

وكفؤ القدّيسة البتولِ الزهراء ..

وابي الخلفاء الأوصياء ..

إمام الأئمة وأمير المؤمنين عليه السلام ..

أضع بينَ يديك اليسير ، مؤمّلاً منكَ الكثير ..

فتفضّل وتقبّل وتكرّم ..

ثبّتني الله تعالى على القول الثّابتِ بإمامتك وولايتك ومحبّتك حيّاً وميّتاً .. وحشرني في زمرتك وتحتَ لوائك .

المقدّمة..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين ، وصلّى الله على سيّد الخلق ، وإمام المرسلين ، أبي القاسم محمّد وآله الطيّبين الطّاهرين ، سيّما بقيّة الله في الأرضين ، وتالي الخلفاء الميامين ، بقيّة السّلَف ، ووارث الشّرف ، عجّل الله تعالى فرجه الشّريف .

رغم أنّ الدّين الذي هو عندَ الله سبحانه واحدٌ لا يتعدّد إلاّ أنّ الفِرَق الإسلاميّة تختلف كثيراً عند بيان تفصيل العقيدة الإسلاميّة ، فقد اتّسعت مساحة الاختلاف بين المسلمين ولم تجتمع إلاّ على بعض أصول الاعتقاد وأمّهات المسائل ، ولهذا فإنّ مباحث العقيدة تحتاج إلى التحقيق والغربلة ، لتتم تنقيتها من الشوائب ، ولا طريق لتحقيق ذلك إلاّ بالاعتصام بالقرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام ، بعيداً عن

الأهواء الشخصيّة والتأثيرات الخارجيّة والتيّارات الفكريّة ، فيمكن حينئذٍ الارتواء من عينٍ صافية ، وتناول مجانيها من قطوف دانية ..

وكنت من زمن بعيد أحبّ أن أُسهم في إثراء هذا الجانب بعرض دراسة مختصرة تضمّ عقائد الإماميّة ، والمهمّ عندي أن تحوي ما يحتاجه الشّباب لبناء عقيدتهم ، وتصلح أن تكون منهجاً لتدريس مادّة العقائد في الدّورات العلميّة ، بتقريب وتبسيط ، واعتماداً على المصادر العلميّة المتعارفة في الحوزات العلميّة ، ومن الله تعالى نستمدّ العون والتوفيق .

القول الثابت

تنامت في أواخر القرن الأوّل الهجري ظاهرة المذاكرة الكلاميّة وتزايدت المناقشات العقائديّة حتّى نشأت الفرق الإسلاميّة وبانت ملامح الاختلاف بين أصول العقائد فيها ، فظهرت فِرَقٌ لا زالت معروفة حتى اليوم في كتب العقائد ، منها المرجئة ، والجهميّة ، والمعتزلة ، والحشوية ، والأشعرية ، والكرّامية بتشعّباتها ، أمّا

الأصول الاعتقاديّة التي تبنّتها كلّ فرقة فهو نتاج الإحتكاك والتأثّر بالتيّارات الفكرية المختلفة في عصرها ، إذ ليس لهذه الفرق تاريخ فكري متّصلٌ بزمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتاتاً !

ولتوضيح هذه النقطة المهمّة نقول : إنّ الخوارج مثلاً فرقة سياسية نشأت في حرب صفّين ، وعُدّت من الفرق الدّينيّة في أواخر القرن الهجري الأوّل ، وكذلك المرجئة .. فقد ظهرت عند اختلاف الناس في عثمان والإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، أمّا الجهَميّة فهي نسبة إلى جهم بن صفوان المتوفّى سنة ١٢٨ هـ ، وهكذا سائر الفرق ، فإنها وليدة أحداث متأخّرة زماناً عن عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

أمّا عقائد الشيعة الإمامية فقد أُخذت من منابع التشريع الإسلامي الأصليّة ، ولم تكن مناهجها وليدة الإحتكاك بالمتكلّمين بتاتاً ، وهي مبنيّة على أساس القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعترته المعصومين عليهم السلام ، فتاريخ العقائد عند الشيعة يرجع إلى تاريخ الإسلام نفسه ..

فالنبي ﷺ رحل عن أمّته مخلّفاً فيها وديعتين عظيمتين ضماناً للهداية وأماناً من الغواية ، فقال : إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[1] .

ويدلّ هذا النصّ على أنّ الكتاب والعترة معاً مقياس الحق ومنهاج الإسلام في السّلوك والفكر والمعتقد ، والمرجع في الأحكام والشرع والدّين .

---

(١) حديث الثقلين : من الأحاديث المتواترة ، واللفظ لمسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٧ و ٢٦ . وأخرجه في كنز العمال ج ١ ص ٤٧ الحديث ٩٤٥ . وتجد الحديث في صحيح مسلم (١٥/ ١٤٩) ح ٦١٨٧ و ص (١٥١) ح (٦١٨١) ، وفي سنن البيهقي (١٥/ ٩٠) ح (٢٠٧٧٨) ، وفي سنن النسائي (٥/ ٤٨) ح (٨٠٥٤) و ص (١٣٤) ح (٨٣٧٠) و ص (٤٥) ح (٨٠٨١) ، وفي سنن الدارمي ح (٣٣١٤) .

فالكتاب والعترة منبعا العقائد عند الشيعة ، ومن هذا المنطلق مرّت حركة العقائد الشيعيّة بمراحل متتالية من الاهتمام ، وحرّرها العلماء في كتب خاصّة ، حتّى خلّفوا بين أيدينا تراثاً عقائديّاً زاخراً ، فيمكننا اليوم البناء على تأسيسهم المحكم ، وتشهد مبانيهم على أنّهم لم يدّخروا وسعاً في تشييد أصول العقيدة بالطّرق العلميّة الصحيحة ، حتّى أنّهم لم يعتمدوا على أخبار الآحاد في تثبيت أصل عقائدي أبداً ، بل اشترطوا فيه التواتر أو كونه محفوفاً بالقرائن المفيدة للعلم واليقين ليقبلوها .

ولابدّ من التأكيد هنا على أنّ عقيدة الشيعة تنفردُ وترتكز أساساً على القول بالنّص من الله تعالى بواسطة النبي ﷺ لإمامة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده الطّاهرين عليهم السلام ، وهو القول الثابت ، وأنّهم عِدلُ القرآن الكريم والحجّة على النّاس أجمعين ، وهم الحجّة في بيان أُصول الإسلام ، فعناصر العلوم الاعتقاديّة مستمدّة الكيان من الأخبار الواردة من الأئمّة الطاهرين عليهم السلام .

ولهذا فمن الملاحظ ارتباط بحوث العقائد الشيعيّة بالتراث المنقول عن الأئمة عليهم السلام ، فإذا تصفّحت كتبَ الحديث وجدتها غنيّة بأحاديثهم عليهم السلام التي تتناول العقائد ، وتجد في بعض المرويّات خلاصة أصول الاعتقاد بوضوح ، ومن تلك الأحاديث كتاب الإمام الرضا عليه السلام وحديث السيّد الحسني ..

١. كتاب الإمام الرضا عليه السلام :

روى الشيخ الصدوق رحمه الله بسنده عن الفضل بن شاذان قال : سأل المأمون عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار ، فكتب عليه السلام له : " إنّ محض الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، إلهاً واحداً ، أحداً ، فرداً ، صمداً ، قيّوماً ، سميعاً ، بصيراً ، قديراً ، قديماً ، قائماً ، باقياً ، عالماً لا يجهل ، قادراً لا يعجز ، غنيّاً لا يحتاج ، عدلا لا يجور ، وأنّه خالق كلّ شيء ، ليس كمثله شيء ، لا شَبَه له ، ولا ضدّ له ، ولا ندّ له ، ولا كفؤَ له ، وأنّه المقصود بالعبادة والدعاء والرغبة والرهبة .

وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأمينه وصفيّه وصفوته من خلقه ، وسيّد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين ، لا نبيّ بعده ولا تبديل لملّته ولا تغيير لشريعته ، وأنّ جميع ما جاء به محمّد بن عبد الله هو الحقّ المبين ، والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله ، وأنبيائه ، وحججه ، والتصديق بكتابه الصادق العزيز الذي : ﴿**لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيم حَميد**﴾ ، وأنّه المهيمن على الكتب كلّها ، وأنّه حقّ من فاتحته إلى خاتمته ، نؤمن بمحكمه ومتشابهه ، وخاصّه وعامّه ، ووعده ووعيده، وناسخه ومنسوخه ، وقصصه وأخباره ، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله .

وأنّ الدليل بعده والحجّة على المؤمنين والقائم بأمر المسلمين ، والناطق عن القرآن ، والعالم بأحكامه : أخوه وخليفته ووصيّه ووليّه ، والذي كان منه بمنزلة هارون من موسى : عليّ بن أبي طالب عليه السلام أمير المؤمنين ، وإمام المتّقين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، وأفضل

الوصيّين ، ووارث علم النبيّين ، والمرسلين ، وبعده الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة .

ثمّ عليّ بن الحسين زين العابدين ، ثمّ محمّد بن عليّ باقر علم النبيّين ، ثمّ جعفر بن محمّد الصادق وارث علم الوصيّين ، ثمّ موسى بن جعفر الكاظم ، ثمّ عليّ بن موسى الرضا ، ثمّ محمّد بن عليّ ، ثمّ عليّ بن محمّد ، ثمّ الحسن بن عليّ ، ثمّ الحجّة القائم المنتظر ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ .

أشهد لهم بالوصية والإمامة ، وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله تعالى على خلقه في كلّ عصر وأوان ، وأنّهم العروة الوثقى ، وأئمّة الهدى ، والحجّة على أهل الدنيا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأنّ كل من خالفهم ضالّ مضلّ باطل ، تارك للحقّ والهدى ، وأنّهم المعبّرون عن القرآن ، والناطقون عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالبيان ، ومن مات ولم يعرفهم مات ميتة جاهلية .

وأنّ من دينهم الورع والفقه والصدق والصلاة والاستقامة والاجتهاد ، وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر ، وطول السجود ، وصيام النهار وقيام الليل ، واجتناب المحارم ، وانتظار الفرج بالصبر ، وحسن العزاء وكرم الصحبة .. إلى آخر فروع الفقه (1) .

٢. خبر السيد عبد العظيم الحسني :

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله عن عبد العظيم الحسني قال : دخلت على سيّدي عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام فلـمّا بَصُرَ بي قال لي : مرحباً بك يا أبا القاسم أنت وليّنا حقّا ، قال : فقلت له : يا بن رسول الله إنّي أُريد أن أعرض عليك ديني ، فإن كان مرضيّاً أثبت عليه حتّى ألقى الله عزّ وجلّ . فقال : هاتها أبا القاسم .

فقلت : إنّي أقول إنّ الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شيء ، خارج من الحدّين ، حدّ الإبطال ، وحدّ التشبيه ، وأنّه ليس بجسم

(١) راجع كتاب عيون أخبار الرضا ٢/ ١٢١ـ١٢٢ .

ولا صورة ولا عرض ولا جوهر ، بل هو مجسِّم الأجسام ومصوِّر الصور ، وخالق الأعراض والجواهر ، وربُّ كلّ شيء ومالكه وجاعله ومحدثه ، وإنّ محمّداً عبده ورسوله ، خاتم النبيّين فلا نبيّ بعده إلى يوم القيامة ، وأقول : إنّ الإمام والخليفة ووليّ الأمر بعده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، ثمّ الحسن ، ثمّ الحسين ، ثمّ عليّ بن الحسين ، ثمّ محمّد بن عليّ ، ثمّ جعفر بن محمّد ، ثمّ موسى بن جعفر ، ثمّ عليّ بن موسى ، ثمّ محمّد بن عليّ ، ثمّ أنت يا مولاي .

فقال عليه السلام : ومن بعدي الحسن ابني ، فكيف للناس بالخلف من بعده ؟ قال : فقلت : وكيف ذاك يا مولاي؟ قال : لأنّه لا يرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه حتّى يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً .

قال : فقلت أقررت وأقول : أنّ وليّهم وليّ الله ، وعدوّهم عدوّ الله ، وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله ، وأقول : أنّ المعراج

حقّ والمساءلة في القبر حقّ ، وأنّ الجنّة حقّ ، والنار حقّ ، والميزان حقّ ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور .

وأقول : أنّ الفرائض الواجبة بعد الولاية : الصلاة والزكاة ، والصوم ، والحجّ ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فقال عليّ بن محمّد عليه السلام : يا أبا القاسم ، هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده ، فاثبت عليه ثبّتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة [1] .

فمجموع هذه الاعتقادات هي أصول العقيدة الشيعيّة الإماميّة التي يحيى عليها المؤمن وعليها يموت ، وهي القول الثابت ، ثبّتنا الله تعالى عليه في الدّنيا والآخرة .

---

(١) راجع كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ٨١ .

الدّرس الأوّل

- الدّين فطرة .
- تأسيس المعرفة .
- معرفة الله سبحانه .
- صفات الله تعالى .

الدّين فطرة

بزغت شمسُ الإسلام لتشرق بنور العلم وتبدّد ظلمات الجهل ، وانطلقت بانطلاقة الدّين أعظم ثورة فكرية قادت الإنسان إلى الكمال والتقدّم ، وجرّدته من براثن الجهل والوهم والخرافة ، وأشبعت حاجته إلى العقيدة فتمكّن أن يفسّر بها الكون والحياة ، فشفى بذلك غليل فطرته ، وسمت مكارم الأخلاق في نفسه ، فالمعرفة هي أمّ العوامل التي تجنّد الإنسان للخير والفضيلة ، ومن دون المعرفة كانت الأخلاق مجرّد عِظات جافة ومظاهر فارغة ..

وقيل : لولا الدّين لتجلّت الأخلاق وكأَنها أَشبه بالمبادلات الإقتصادية ، ولصارت الغاية منها الفوز بالنجاح الدنيوي ، بحيث لو كان النجاح والفوز مضادّاً للقيَم لتمايل عنها ، لكون الغاية في جانب اللاّ قيَم ، وإِنما هي العقيدة الدّينيّة التي تترك الإِحساس بالمسؤولية في روح الإِنسان[1] .

وبما أنّ الإنسان يحتاج إلى الدين أكثر من حاجته للهواء والطعام والماء فإنّ الله تعالى قد جعله فطرة في أعماقه ، جبَلَه عليها ، وجعل فطرته متفوّقةً في ذاته على ميوله وغرائزه ..

فهو يكتسب بالتعلّم والملاحظة والتجربة شطراً من إدراكاته ، فهي من خارج نفسه ، مثل قوانين الفيزياء والكيمياء ..

---

(١) من كلمات المؤرخ المعاصر (ويل ديوارانت) ، راجع لذائذ الفلسفة ص ٤٧٨ .

وهناك إدراكات نابعة من داخله وأعماقه وذاته ، مثل معرفته بنفسه وإحساسه بالجوع والعطش وحبّه واشتياقه وميوله العاطفيّة وأحاسيسه الذاتيّة .

وعند التأمّل نكتشف أن في أعماق نفس الإنسان شعوراً دينيّاً يتأجّج في بداية نضوجه العقلي ، يدعوه هذا الشّعور إلى البحث والتحرّي وتحصيل الإجابات لأسئلته الملحّة حول أسرار الوجود والحياة ، ثم يجد في ذاته الإجابة الشافية عن أوّليات تلك التساؤلات فيعتقد أنّ وراء هذا العالم قوّة ملهِمة يستمد هذا العالم وجوده منها ، وهذا المعتقد النّابع من أعماق الإنسان هو الفطرة التي فطر الله تعالى الإنسان وجبله عليها ، وهي أساس الدّين .

يقول تعالى : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهَّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ .. وفطرة الله تعالى هي الدين ، وهي التي توجّه دفّة الاعتقاد نحو الخالق الذي أنعم بالوجود وتكرّم بالحياة وخلق كلّ

شيء ، الذي فطرنا على هذه المعرفة كما فطرنا على كثير من الميول والغرائز .

ويقول تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ .. أي هدى الإنسان إلى طريق الخير وطريق الشر ، وغرس في ذاته نواة المعرفة ، فوظيفة الأنبياء عليهم السلام تكمن في إثارة المعارف الفطريّة الكامنة في الذوات ، إذ أنّ الدين بصورته الكليَّة أَمر فطري ينمو بحسب نمو الإنسان ورشده ، ومن منطلق الفطرة يصل الإنسان إلى طرق المعرفة ، والطرق إلى معرفة الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق ..

وتسوق الفطرةُ العقلَ ـ وهو نبيٌّ باطن ـ إلى كمال المعرفة ، فإنَّ لكلّ ظاهرة وجهان ، وجهٌ يحكي وجودها وحدودها .. ووجهٌ آخر يحكي اتّصالها بعلّتها وأصل نشأتها ومصدرها ، فيأخذ العقلُ بيد العاقل إلى معرفة الله تعالى عن طريق آثاره ومخلوقاته ، فإذا اقتصرنا في معرفة الظواهر على الوجه الأوّل فقد حبسنا عقولنا في سجن المادّة ، وأمّا إذا انتقلنا إلى الوجه الثاني بلغنا إلى كمال المعرفة ، وكسرنا طوق

المادّة منتقلين إلى معرفة خالق هذه الظـواهر ، وعرفنـا أنّ الطـرق إلى معرفة الله مع كلّ ظاهرة في الكون ، ابتداءً بالذرة وانتهاءً بالمجرة .

إنّ هذا غرض القرآن الكريم في توجيهه عناية الإنسان لملاحظـة الظواهر المختلفة ، فهو يريد أن ينتقل بعقلـه ومـن خـلال فطرتـه إلى مبدئها ، فيقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْـتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُـلِّ دَابَّـة وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْـمُـسَخَّرِ بَـيْنَ الـسَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَـات لِّقَوْم يَعْقِلُونَ﴾ .

تاسيس المعرفة

الإيمانُ مُرتَكِزٌ ومعتمدٌ على الفطرة .. والمعرفة تتقوّى بالاكتساب والتعلّم ، من خلال الانتقال عبر الظّواهر المختلفة إلى معرفة خالقهـا وجاعلها ، فقد وهبنا الله تعالى قوّة العقل كي نتفكّر في خلقه ونتأمّـل في آثاره ونتدبر في حكمته .. قال سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي

الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

ولهذا .. فإنّه ذَمَّ المقلّدين لآبائهم فقال : **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾** .. كما ذم متّبعي ظنونهم فقال : **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** .

فالعقلُ هو من فرض النّظر في الخلق حتّى ننتقلَ إلى معرفة خالق الكون ، والعقل هو من فرض النظر في دعوى من يدّعي النبوة وفي معجزته .. ولم يجوّز لنا تقليد الغير في أصول العقيدة ، وقد قرّرت الآيات القرآنيّة هذه الحرية الفطرية في العقول ، فالواجب على الإنسان أن يتأمل وينظر ويتدبّر بنفسه في أصول الدّين ، وعلى رأسها التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد .

وعليه .. فوجوب الفحص عقليٌّ قبل أن يكون شرعيّاً .. مع تأييد الشّرع له ، إلاّ أنّ العقل يحكم بضرورة تحصيل المعرفة في أصول

الدّين ، كما أنّ بعض المُعتقدات نأخذها بالتسليم من قول النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام بعد التأكّد من صحّة نسبة القول لهم عليهم السلام ، كالاعتقاد بالقضاء والقدر والرجعة ، فحجّة القول بهذه العقائد هي اعتمادنا على المأثور عنهم عليهم السلام من صحيح الأثر القطعي .

وأمّا في فروع الدّين ، وهو ما يختصّ بأعمال المكلّفين ، فإنّه يتعيّن أمام طالبها انتهاج أحد طرق ثلاثة ، إمّا الاجتهاد والنّظر في أدلة الأحكام إن كان المكلّفُ أهلاً لذلك ، وإما الاحتياط في الأعمال إن كان يسَعُه ذلك ، وإما التقليد بالرّجوع إلى المجتهد الجامع للشرائط ، فمن لم يكن مجتهداً ولا مُحتاطاً ولا مُقلّداً فعباداته باطله إلاّ إذا طابق عمله رأي من يجب عليه تقليده .

معرفة الله سبحانه

تقدّم أنّ الإنسان ينطلق في المعرفة من منطلق الفطرة التي أوجدها الله تعالى في أصل خلقته ، ثمّ يستفيد من الأدوات التي حصل عليها بنعمة الله تعالى وفضله لدعم هذه المعرفة ، فهو يحرّك

الحس لملاحظة ظواهر الكون والحياة ، ويستعين بعقله وذكائه في تفسير مختلف الظواهر والانتقال إلى عِلَلِها ومُسبّباتها ، ويستهدي بالأنبياء والأئمة عليهم السلام لبلوغ أكمل مراتب المعرفة .

فلا بدّ من معرفة أنّ الله سبحانه واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيء ، قديمٌ لم يزل ولا يزال ، هو الأوّلُ والآخر ، ولا يصحّ لنا أن نَصِفَهُ بما توصف به المخلوقات ، لأنّهُ ليسَ جسماً ولا صورة ، وليس جوهراً ولا عرضاً ، وليس له ثقل أو خفة ، وليست له حركة أو سكون ، ولا مكان ولا زمان ، ولا شبهٌ له يُشبِهُه ، ولا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ، ولم يكن له كفوا أحد ، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

أمّا من شبّهَهُ بخلقه وصوّر له وجهاً ويداً وعيناً ، أو أنه ينزل إلى السّماء الدنيا ، أو أنه يظهر إلى أهل الجنة كالقمر ، فهو جاهلٌ بحقيقة الخالق المنزّه عن النقص ، وقد رُويَ عن الإمام الباقر عليه السلام : كلّ ما

ميزتموهُ بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوقٌ مصنوعٌ مثلكم مردودٌ إليكم .

وتقتدي كلّ كلمات البلغاء والعارفين بكلمة الإمام المعصوم عليه السلام ، فإنّ فيها نهاية المقصد ، وليس بعدها إلاّ الضّلالة ، فكيفَ يعرفُ الله تعالى من قال أنّه يتراءى لخلقه يوم القيامة ! وهذا هو الانحراف ووأد الفطرة ونكران العقل ..

ويقودُ هذا الظّلال بُعدُ هؤلاء عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام وجمودهم على ظواهر الألفاظ في القرآن الكريم والحديث الشّريف ، فلم يتصرّفوا بالظواهر بحسب ما يقتضيه العقل والدليل وقواعد الاستعارة والمجاز ، فوقعوا في عين الخطأ .

فالذّات الإلهيّة لا مثيلَ لها ولا نظير ولا عديل ولا شبيه ، وليس للإنسان طريق لمعرفةِ حقيقة الذات الإلهيّة أبداً ، لكنّه يمكن له أن يعرف الله تعالى عن طريق صفاته الجمالية والجلالية ..

والصفات الجماليّة (الثبوتيّة) هي التي تدلّ على كمالِ الله تعـالى في وجوده ، كالعلم والقدرة والحياة .. والصفات الجلاليّة (السلبيّة) هي التي يجلّ الله تعالى عن وصفه بها ، لأنّها تدلّ عـلى الـنّقص والعجـز ، وهو منزّه عن كلِّ نقص وعجـز ، كالجـسمانية والاحتيـاج إلى المكـان والزمان والتركيب .

فإذا علمتَ أن الإنسان يمكنه معرفة الله تعالى عن طريق صـفاته فاعلم أنّ أبرز طرق معرفة الحقائق هي الحسّ والعقل والوحي ، وبما أنّه سبحانه ليس كمثله شيء فلا يمكن معرفتـه عـن طريـق الحـس ، ويمكننا معرفته عن طريق صفاته بطريقي العقل والوحي ..

١ . **طريق العقل** : تدلّ نظـرة العقـل عـلى أنّ الظـواهر المختلفـة مخلوقة له تعالى ، ولا يمكن أن نتصوّر أنّ بناء الكون الشاهق قـد تـمّ من دون علمٍ وقدرة واختيار وتدبير ، ولهذا فإن القرآن الكريم يـدعو إلى التدبّر في آيات الكون تدعيماً لدور العقل ، فيقول : ﴿**قُـلْ انْظُـرُوا**

مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي انظروا نظرة تدبّر وتأمـل لتكتـشفوا بمساعدة الحسّ تلك الحقائق .

٢. طريق الوحي : لقد ثبتت بالأدلّة القطعيّة نبـوّة نبيّنـا الكـريم ﷺ وثبت أنّ القرآن الكـريم كتـاب الله تعـالى ، وطبيعـيٌّ أن يمهّـد النبي ﷺ والقرآن طريق معرفـة صـفات الله تعـالى ، فجـاء القـرآن الكريم بقرابة مئة وأربعين صفة لله تعالى .. جاء في آيتين فقط :﴿ هُـوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُـؤْمِنُ الْمُهَـيْمِنُ الْعَزِيـزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَـا فِي الـسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ .

صفاته تعالى

بما أنّ صفات الله تعالى هي طريق معرفته فلابـدّ أن نتعـرّض إلى الكلام فيها بنحو من التفصيل ..

ذاتيّـة وفعليّـة : تنقـسم صـفاته إلى قـسمين ، صِـفات الـذات وصِفات الفعل ، وصفات الذات هي الّتـي يـلازم تـصوُّرها تـصوّرَ الذات الإلهيّة ، كالعلم والقدرة والحياة .. وصفات الفِعل هـي التـي تُوصف بها الذات الإلهيّة بملاحظة صدور فعلٍ منه تعـالى ، كالخـالق والرازق ، فإذا لم يصدر منه تعالى فعل الخلق والرزق لا يمكن وصفه فعلاً بها وإن كان قادراً عليها .

صفاته الذاتية ..

١ . **العلم :** صفاتُ الله عين ذاته ، ومن صفاته العلم ، فعلمُه أزليٌّ مثل ذاته ، وعلمه مطلق لا نهاية له ، أي أنّه يعلم بذاته ويعلـم بكـل شيءٍ ممّا سوى ذاته كليّاً كان أم جزئياً ، قبل وقوعه وبَعد وقوعه ، وقد قال تعالى :﴿ **إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْمٌ**﴾ .

وقال الإمام جعفر الصّادقُ عليه السلام : لَمْ يَزَل عالِماً بالمَكانِ قَبْلَ تَكوينه كَعِلْمِهِ به بَعْدَ ما كوَّنَهُ وَكَذلِكَ عِلمُهُ بِجَمِيعِ الأشياء (1) .

٢. **القُدرة** : وقدرته مثلُ عِلمه أَزَليّةٌ ، لأنّها عين ذاته ، ومطلقةٌ غير محدودة ، قال تعالى : ﴿**وَكانَ اللهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيراً**﴾ .. وقال الإمام جعفرُ الصّادق عليه السلام : الأشياءُ لَهُ سَواءٌ ، عِلماً وقُدْرةً وَسُلْطاناً ومُلْكاً وإحاطةً (2) .

٣. **الحياة** : العالم القادر حيٌّ قطعاً ، والحياةُ صفةٌ منزّهةٌ عن النقص ، فالله سبحانه حيٌّ لا يموت ، قال تعالى : ﴿**وَتَوَكَّلْ على الحيِّ الذي لايموتُ**﴾ .

٤. **الإرادة والاختيار** : ونعني إن اللهَ مريدٌ .. أي أنّه تعالى مختارٌ وليس بمجبورٍ ولا مضطر في أفعاله ، إلاّ إنّ الإرادة بمعنى التدرّج والحدوث كما هي عند الإنسان لا مكان لها في الذات الإلهيّة ، ولهذا

(١) توحيد الشيخ الصدوق ص ١٣٧، الباب ١٠، الحديث ٩.

(٢) توحيد الشيخ الصدوق ، الباب ٩ الحديث ١٥.

فإن الإرادة وُصفت في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بأنّها نفسُ إيجاد الفعل وتحقّقه منعاً من الخطأ في تفسير الإرادة ..

قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : الإرادة من الخَلق : الضميرُ وما يَبْدُو لهم بعدَ ذلك من الفِعْل ، وأمّا مِنَ الله تعالى فإرادتُهُ إحداثُه لا غير ، ذلك لأنَّه لا يُرَوّي ولا يَهِمُّ ولا يَتَفَكَّرُ، وهذهِ الصّفاتُ مَنْفيّةٌ عَنْهُ وَهيَ صِفاتُ الخَلْق ، فإرادَةُ الله الفِعْلَ لا غير ذلكَ ، يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ بلا لَفْظٍ ولا نُطْقٍ بلسان ولا همّة ولا تفكّر ولا كيف لِذلِكَ، كما أنَّه لا كيفَ له [1] .

والنتيجة : أنّ وصفه سبحانه في مقام الذات بأنّه مريد يعني أنّه مختار ، ووصفه بأنّه مريد في مقام الفعل بمعنى أنّه موجد ومحدث .

صفاتُ الفِعل : عرفنا المهم من صفات الذات وسنتعرّف على ثلاث من صفات الفعل ..

---

(١) أصول الكافي ج١، ص١٠٩ باب الإرادة أنّها من صفات الفعل .

١. **التكلّم** : إحدى صفاته تعالى ، وقد وصفه القرآن الكريم بها فقال تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ ، والتكلّم ليس من صِفات الذات ، بل هو من صفات الفعل ، وواضحٌ أنّنا لا نقصد بتكلّم الحق تعالى التكلّم بالشّكل الموجود عند الإنسان قطعاً ، بل نقصد أنّه تعالى أوجد الكلام ..

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : يقول لمن أراد كونه (كن) ، لا بصوتٍ يَقرع ، ولا بنداءٍ يُسمع ، وإنّما كلامه سبحانُهُ فعلٌ منه ، أنشأهُ ومثّلَه[1] .

٢. **الصّدق** : من صفاته تعالى ، وهو القول المطابق للواقع ، فهو صادقٌ ولا سبيلَ للكذب إلى قوله ، لأنّ الكذبَ شيمةُ الجَهَلة والعَجَزة والجُبَناء وهو منزهٌ عن القبيح .

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٦ .

٣. الحكمة : من الصّفات الكماليّة لله تعالى ، والمقصود أنّ أفعاله تعالى تتسم بمنتهى الإتقان والكمال ، وأنَّه منزّهٌ عن الأفعال الظالمة والعابثة ، ونظامُ الخلق يدل على إتقانه وكماله ، قال تعالى : ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ﴾ ، ويشهد على تنزيهه من العبث قوله تعالى : ﴿وما خَلَقْنا السَّماءَ والْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ .

صفاته السلبيّة ..

عرفتَ أنَّ صفات الله تعالى إمّا صفات جمال تدلّ على كماله وهي الثبوتيّة ، وإمّا صفات جلال ، والهدف منها تنزيه ذاته بها ، من نقص أو حاجة أو فقر ، وهي الصّفات السلبيّة ..

فلكونه تعالى غنيّاً فهو منزّهٌ عن كُلّ وصفٍ يؤدّي إلى النقص والحاجة والفقر ، ولهذا فإنه تعالى ليس بجسمٍ ولا محلاًّ لشيء ولا حالاًّ في شيء ، لأنّ هذه الخصوصيات تلازم النقص والاحتياج والفقر ، وهي تعارضُ غناه المطلق ..

فمن هذه الصفات السلبيّة ..

أنّه لا يُرى بالعين : لأنّها صفة تدلّ على النقص ، إذ أنّ الشيء لا يكون مرئياً إلاّ إذا كان في مكان أو في جهة خاصّة ، وأن يكون منيراً لا مظلماً ، وأن يكون بينه وبين ناظرِهِ مسافة معيّنة ، وهذه صفات الكائن الجسماني ، والله تعالى منزّه عنها .

ونحن نعني هنا الرؤية الحسيّة البصرية ، لا الرؤية القلبيّة التي تتحقّق بالإيمان الكامل فلا ريب في إمكان وقوعها للأولياء عليهم السلام .. ويدلّ عليه سؤال ذعلب اليمانيّ لأمير المؤمنين عليه السلام : هل رأيتَ ربَّك يا أميرَ المؤمنِين؟

فقال عليه السلام : أفَأَعبُدُ ما لا أرى !

فقال ذعلب: وكيف تراهُ ؟

فقال عليه السلام : لاَ تراهُ العُيُونُ بمشاهدة العَيانِ ، وَلكِن تدرِكهُ القُلُوب بِحَقائِقِ الإيمان .

أمّا الرؤيـة البـصريّة فإنّهـا ممتنعـةٌ عقـلاً ، ومرفوضـةٌ في القـرآن الكريم ، فقد ردّ سبحانه على نبيّه موسى عليه السلام بالنفي المؤبد ، قـائلاً : ﴿رَبِّ أرِنِي أَنْظُرُ إلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي﴾ .

الدّرس الثّاني

- اقسام التوحيد .
- تعظيم الاولياء .
- التوسّل بالاسباب .
- البداء .

اوّل الاصول

التوحيد

﴿قُل هو اللّهُ احد﴾

اقسام التوحيد

الأصل الجامعُ في الشرائع السماويّة كلّها هو الاعتقاد بوجود الله تعالى ،وهو ما اعتبرهُ القرآن الكريم واضحاً وغنيّاً عن البرهنة ، كما أنّهُ عدّ الشّك في هذه الحقيقة شيئاً مرفوضاً ، فقال تعالى : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ..

إلاّ أنّ القرآن الكريم وبالرغم من بداهة الأمر أنار سبيل الاستدلال وأزال الشّكوك التي تعترض طريق هذا الإيمان بها ..

ويعتبر القول بالتوحيد كذلك أصلاً مشتركاً بين الشرائع السماويّة رغم الإنحرافات التي طرأت على بعضها ، إلاّ أنّ التوحيد عقيدة أصليّة فيها ، وقد استدلّ العقلُ على وجوبها من حيثيّات مختلفة ، وبمعاني متعدّدة ..

أمّا التّوحيد الذاتي .. فإنّ له معنيان ..

١ . أنّ الله تعالى واحدٌ ، لا مثيل له ولا نظير ولا شبيهَ ولا عديل .

٢ . أنّ الذات الإلهيّة ذاتٌ بسيطةٌ لا كثرةَ فيها ، ولا تركّب .

وفي المعنيين قال تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ فقوله ﴿**أحد**﴾ إشارة إلى بساطة الذات ونفي الكثرة والتركيب فيها ، ﴿**ولم يكن له كفؤ أحد**﴾ إشارة إلى نفي المثيل والنظير والشبيه والعديل ..

وفي المعنيين يقول أمير المؤمنين عليه السلام : هُو وَاحِدٌ لَيسَ لَه في الأشياء شَبَهٌ ، وإنّه عزّ وجل أَحديّ المعنى ، لا ينقسم في وجود ولا وَهم ولا عقل [1] .

وعليه .. فإنّ فكرة التثليث التي يعتقد بها النصارى باطلة ، لأنّ الاعتقاد بكون الإله ثلاثاً لا يخلو من حالتين .. إمّا أن يكون لكل واحدٍ من الآلهة الثلاث وجودٌ مستقلٌّ فيتنافى هذا حينئذٍ مع المعنى الأوّل ، وإمّا أن تكون الآلهة الثلاث ذات شخصيّة واحدة مجزّأة ، فيتنافى مع المعنى الثاني .

أمّا التوحيد في الصفات ..

فقد دلّ العقل والوحي على أنّ الله تعالى موصوفٌ بكلّ الصفات الكمالية ، وأنّ هذه الكمالات مجتمعة في الذّات الإلهيّة ، فهو سبحانه عالمٌ قادرٌ حيٌّ سميعٌ بصيرٌ .. ولكلِّ صفةٍ معناها الخاص ، فهي

(١) توحيد الشيخ الصّدوق ص ٨٤ .

مختلفة من حيث المفهوم ، فالعلمُ غير القدرة ، إلاّ أنّها متحدة في ذاتـه تعالى .. لا بمعنى أنّ بعض الذات الإلهيّة عِلم وبعضها الآخر قُدرة ، بل هو سبحانه علمٌ كلُّه وقدرةٌ كلّهُ .. وعليه فإنّ الصّفاتِ الذاتية هي عين ذاته سبحانه وتعالى .

وقد قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام : لم يَزَل اللهُ جلّ وعـزّ ربُّنـا والعلمُ ذاتُه ولا معلومَ ، والسَمعُ ذاتُه ولا مسموعَ ، والبَصَرُ ذاتُه ولا مُبصَرَ ، والقدرةُ ذاتُه ولا مقدورَ [١] .

وقال مولانـا أمـير المـؤمنين عليه السلام : **وكـمالُ الإخـلاصِ لـه نفـي الصفاتِ عنه ، لشهادة كلِّ صفَةٍ أنها غـيرُ الموصـوف ، وشـهادةِ كـلّ موصوفٍ أنّه غير الصفة** [١].

وأمّا التوحيد في الخالقية ..

---

(١) راجع توحيد الشيخ الصدوق ، ص ١٣٩ .

(١) راجع نهج البلاغة ، الخطبة الأولى .

فلا خالق إلاّ الله سبحانه ، وكلّ الوجود مخلوقٌ له ، وقد دلّ العقل على أنّ كلّ ما سِوى الله محتاجٌ متحقّقٌ وجوده من الله تعالى ، وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى :﴿ **ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ ، وقال : ﴿**قُلْ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ .

مضافاً إلى أنّ تأثيرَ كلِّ ظاهرة مادّية في مثلها محكومٌ بإذنه ومشيئته تعالى ، فهو من أعطى النور للشمس والقمر ، وهو القادر على سلبه منها دون منازع ، وعليه .. فهو الخالق الوحيد بلا ثان ، وقد أيّد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿**اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا**﴾، فهو سبحانه مرسل الرياح المؤثّرة في تحريك السحاب .

وأمّا التوحيد في الربوبيّة ..

فهو تعالى وحده مدبّر الكون بما فيه ، ليس له شريك في تدبيره ، وهذا هو محور الصّراع بين الأنبياء عليهم السلام والأمم على مرّ العصور ، إذ

كانت الأمم تشرك في تدبير الكون وإدارة العالم ، فاعتقد المُكذّبون في عصر النبي إبراهيم عليه السلام بوحدة خالق الكون إلاّ أنّهم اعتقدوا أنّ النجوم والكواكب هي مدبّرات الكون ، كما أن مشركي مكّة اعتقدوا أنّ أصنامهم تضرُّ وتنفع بصورة مستقلّة من دون إذن الله تعالى ومشيئته ، وبالرّغم من اعتقادهم بالتوحيد في الخالقية فقد أشركوا في الربوبيّة ..

نعم .. كان مشركوا مكّة موحّدين في أُمور هامّة كالرزق والإحياء والإماتة وتدبير الكون ، يقول القرآن الكريم : ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ ..

رغم أنّهم كانوا ينسبون أحياناً النّصرَ في القتال والحفظ في السفر وغير ذلك إلى أصنامهم ويعتقدون بتأثيرها المستقل ، بل ويعتقدون أنّها تشفع من غير إذن الله تعالى ، وأنّ شفاعتها مفيدةٌ ومؤثّرة قطعاً .

لكنّ توحيد الرّبوبيّة يفنّد كلَّ ألوان الاستقلال والتأثير من غير إذن الله تعالى ، فتدبير الوجود مسألة لا تنفصل عن مسألة الخلق ، فخالق الكون الواحد هو وحده من يدبّره ، ولهذا فإنّ التناسقَ السّائد في الكون دليلٌ على المدبّر الواحد له ، قال تعالى : ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ .

وأمّا التوحيد في الحاكميّة ..

عرفنا أنّه سبحانه هو مدبّر الكون بما فيه ، وعليه فإنّ تدبير أمر الإنسان في مجال الحكومة أو التقنين والطاعة والشفاعة والمغفرة برمّته بيده تعالى ، فليس لأحد أن يتصرّف في هذه المجالات من دون إذنه تعالى ، ولهذا يُعتبر التوحيدُ في الحاكمية والتشريع والطاعة من لوازم التوحيد في التدبير .

فالنبي ﷺ حاكمٌ على المسلمين باختيار الله تعالى ، فتجب طاعته لأنّ طاعته نفس طاعة الله ، قال تعالى : ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ .

وهكذا لا تكون الشفاعة ومغفرة الذنوب إلاّ بإذنه وحده ، قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.. وعليه فإنّه ليس لأحد أن يبيع صُكوك الغفران أو يهب الجنّة لأحد أو يُنجّي أحداً من عذاب الآخرة كما هو رائجٌ في المسيحيّة ، وهذا كلّه باطلٌ محض ، قال تعالى : ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ اللهُ﴾ .. فالمَوَحّدُ يجب أن يعتقِدَ أنّ الله تعالى وحده هو الحاكم إلاّ أنْ يعيّن شخصاً للقيادة الدّينيّة .

وأمّا التوحيد في العبادة ..

التوحيد في العبادة قاعدة تتفق عليها جميع الشرائع السماوية ، بل إنّه هو الهدف من وراء بعثة الأنبياء والرسل ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كلّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطاغوتَ﴾ .

وعلى هذا فإنّ وجوبَ عبادة الله تعالى وحده واجتناب عبادة غيره قاعدةٌ مسلَّمة ، إلاّ أنّ الخلاف قد وقع في تطبيق هذه القاعدة ،

وخلط البعض بين العبادة والتكريم ، فلا شكّ في أنّ عِبادةَ الوالـدين والأولياء شركٌ بالله تعالى ، إلاّ أنّ احترامهم عين التوحيد ..

ومن هذا المبدأ نفهم سجود الملائكة لآدم عليه السلام وَسُجود يعقوب عليه السلام وأولاده ليوسف عليه السلام ، نعم .. إنّ نفسَ هذا العمل قـد يكـونُ شركاً في مقام آخر ، والمرفوض من العبادة هي خضوع الإنسان أمـام جهة مع اعتقاد أنّ بيدها المصير والخير والشر ..

وأمّا الخضوع أمام عبد صالح لله تعالى أو صاحب كرامة عند الله تعالى فهو مجرّد تكريم وتعظيم ولا يكون عبادة له .

فالدافع وراء سجود الملائكة لآدم عليه السلام هو الاعتقاد بعبوديّة آدم وكرامته ومنزلته عند الله تعالى ، وليس الاعتقاد بربوبيّته ، فلا يكـون شركاً في العبـادة ، وكـذلك يجـري كلامنـا في سـجود يعقـوب عليه السلام ليوسف عليه السلام .

تعظيم الأولياء

ظنّ البعض أنّ زيارة القبور وإقامة المآتم لونٌ من ألوان التقرّب إلى غير الله تعالى في العبادة ، وبالغ هذا البعض في التشنيع على الإمامية من خلال تشويه الحقائق الواضحة ، والحقيقة أنّ هذه الممارسات لونٌ من ألوان التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة ، كما نتقرّب إليه بعيادة المريض وتشييع الجنائز وزيارة الإخوان ومواساة الفقير ، فعيادة المريض عمل صالح يتقرب به العبد إلى الله تعالى ، وليس قربة للمريض فيكون حينئذ عمله عبادة لغير الله تعالى أو شركاً في عبادته !

ثمّ أنّ الخلط بين العبادة والتكريم قد أوقع هذا البعض في خطأ كبير ، فاعتبر أن تكريم المسلمين للأولياء عليهم السلام بزيارة المشاهد المشرّفة وتقبيل الضرائح وإظهار الفرح في أيّام مواليدهم والحزن في أيّام شهادتهم ناشيءٌ من الاعتقاد بربوبيّتهم !

ولم يفهم هؤلاء أنّ هذه المظاهر دافعها التكريم الذي حثّ عليه القرآن الكريم والسنّة الشّريفة ، ولا يُقصَد منها إلاّ إظهار المودّة والمحبّة لهم عليهم السلام قربة لله تعالى .

وينطوي تحت عنوان التكريم الكثير من العبادات التي توارثها المسلمون من إنشاء القصائد في مدح ورثاء الأولياء عليهم السلام ، وتشييد البناء على قبورهم الشريفة ، والسعي إلى إحياء أمرهم وذكر فضائلهم ومثالب أعدائهم .. إلى غير ذلك .

أمّا التبرّك بآثار الأولياء عليهم السلام في حياتهم وبعد مماتهم فهو أمرٌ مقبولٌ ، رغم أنّ البعض قد وصف من يقبّل محراب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو منبره بالمشرك ولو كان يدفعه إلى ذلك حبّه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ! .. فالقرآن الكريم يروي أنّ يوسف عليه السلام أمر أن يُلقى قميصه على وجه أبيه ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً**﴾ وكذلك فعل يعقوب عليه السلام حيث وضع قميص يوسف عليه السلام على عينيه فارتدّ

بصيراً .. ﴿فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارتَدَّ بَصيراً﴾ ببركة قميص يوسف عليه السلام .

والخلاصة : أن تعظيم الأولياء عليهم السلام وتكريمهم ليس من الشرك في العبادة كما توهّمه البعض ، وكيف يكون شركاً والقصد منه التقرّب إلى الله تعالى من خلال تعظيم أوليائه عليهم السلام ، وكل هذه الممارسات عباداتٌ وأعمالٌ صالحة ثبت استحبابها شرعاً ، فإذا جاء بها الإنسان قربة إلى الله تعالى استحق عليها الأجر والثواب حتماً .

التوسّل بالأسباب

التوسّل بالأسباب الطبيعية لا يُعدُّ شركاً عند كلّ الأديان ، فالحياة الإنسانية قائمة أساساً على الاستعانة بذلك ، فإذا مرضتَ قصدتَ الطبيبَ ..

وأمّا التوسّل بالأسباب غير الطبيعيّة فقد اعتبره البعض نوعاً من أنواع الشرك ، وتوهّموا أنّ الاعتقاد بتأثير تلك الأسباب يعادل الاعتقاد بربوبيّتها وبالتّالي فالتوسّل بها يُعدُّ عبادة لها ..

فإذا يَئِس مريضٌ من تأثير الأسباب الطبيعيّة واتّجه إلى الاستشفاء بتربة الإمام الحسين عليه السلام فلا يعني أنّه اتخذ التربة المقدّسة ربّاً يعبده من دون الله تعالى، خصوصاً وإنّه يعترف بأنّ اللهّ سبحانه هو الذي منح التربة المقدّسة ومنح المدفون فيها ذلك الأثر، فإذا كان التوسّل بالأسباب غير الطبيعية شركاً فلابدّ من عدّ التوسّل بالأسباب الطبيعية شركاً أيضاً!

وللبعض أن يناقش في وجود هذه الخصوصيّة التي جعلها الله تعالى في هذه التربة المقدّسة، إلاّ أنّه لا يحقّ له أن يعدّ الاستشفاء بها شركاً..

فإنّ الله تعالى هو الذي منح العسل خصوصيّة الشفاء، ومن تناوله للاستشفاء معتمداً على السبب الطبيعي كمن تناول التربة المقدّسة للاستشفاء معتمداً على السبب غير الطبيعي، وقد ورد في الأثر القطعي أن في تربة الإمام الحسين عليه السلام ما يفوق هذه الخصوصيّة!

وكذا يجري الكلام في مسألة التوسّل بأرواح الأولياء عليهم السلام والتوجّه إلى قبورهم وتربتهم المشرّفة ، فإنّنا إذا اعتقدنا ربوبيّتهم أو تأثيرهم من غير إذن الله تعالى ثمّ توسّلنا بهم لقضاء حوائجنا فقد وقعنا في الشرك ..

ولكن .. لو طلبنا حوائجنا معتقدين أنّ الله تعالى وهو القادر الذي منح الولي خصوصية قضاء الحوائج إكراماً منه سبحانه له .. فلا يشوب فعلنا أيّة شائبة شرك ، بل يدل فعلنا على التوحيد .

لقد منح الله تعالى بقدرته الخصوصيّة لقبضة تراب مرّت عليها قدم النبي موسى عليه السلام وأودعَ فيها قدرة عجيبة ، كما في قصّة السّامري ، إذ ﴿**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**﴾ فعالج بها مطلوبه وعاد العجل له خوار ..

وليس عجيباً على الله تعالى أن يمنح التربة الزاكية التي أُريق عليها أزكى وأطهر دم في كربلاء قدرة الشّفاء .. فلا شكّ في إنّ

التوسّل بهذه التربة المقدّسة عين التوحيد قطعاً وفي ذلك غاية التقرّب لله تعالى ، وكذلك الكلام بالنسبة للتوسّل بالأئمة الطّاهرين من أهل البيت عليهم السلام .

البداء

عقيدة البداء من عقائد الإماميّة المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام .. وخلاصتها أنّ لله تعالى نوعان من التقدير للإنسان ، تقدير محتومٌ لا يقبل التغيير ، وتقدير قابل للتغيير ، وهو الذي يجري فيه البداء ..

ومعلومٌ أنّ بيد الله تعالى القدرة المطلقة على تغيير أيّ تقديرٍ بتقدير آخر ، وهو العالم سلفاً بكلا التقديرين ، فالتقدير الأوّل لا يحدّ من قدرة الله تعالى ، وهذا خلاف رؤية اليهود ..

قال تعالى : ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ .. ولم يفرغ سبحانه من أمر الخلق ، بل تجري عمليّة الخلق بصورة دائمة ، وإلى ذلك يشير تعالى : ﴿**كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ**﴾

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله :

قول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير : ﴿**وقالتِ اليهودُ يَدُ الله مَغلُولةٌ**﴾ لم يعنوا أنّه هكذا ، ولكنّهم قالوا قد فرَغَ من الأمر فلا يزيدُ ولا ينقص ، فقال الله جلّ جلالُه تَكذيباً لقولهم : ﴿**غُلّتْ أيدِيهِمْ ولُعِنُوا بِما قالُوا بل يَداهُ مَبْسُوطَتان يُنْفِقُ كيفَ يَشاءُ**﴾ ، أَلم تسمَع الله عزَّ وجَلَ يقول : ﴿**يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ**﴾[1].

هذا .. وإنّ كلّ تقدير إلهي من الله تعالى لا يتمّ من دون حكمة ومصلَحة ، وقد يجري البداء بناءً على عمل وسلوك الإنسان ووفقاً لنمط حياته الصالح أو السّيء ، فالعاق لوالديه مثلاً سيؤثّر بعمله على مصيره حتماً ، فإذا غيّر سلوكه إلى الأحسن وبرّ والديه فقد غيّر مصيره ، وشمله قوله تعالى : ﴿ **يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ ويُثبتُ**﴾ .. وعكس الأمر صحيح .

---

(١) توحيد الصدوق ص ١٦٧، الباب ٢٥، ح ١.

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

وروى السّيوطي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى : ﴿يَمْحوا الله ما يَشاء﴾ ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لأُقِرنَّ عينَك بتفسيرها ولأُقِرَنَّ عَين أُمّتي بعدي بتفسيرها ، الصّدَقةُ على وَجهها ، وبِرُّ الوالِدَين وَاصطِناعُ المعروف يُحوّلُ الشقاءَ سعادةً ويزيدُ في العُمُر ويقي مصارَع السُّوء [1].

وقال الإمام الباقُر عليه السلام : صِلةُ الأَرحام تُزَكّي الأَعْمالَ ، وتُنمّي الأَموالَ ، وَتَدفَعُ البَلوى، وتُيَسِّرُ الحِساب ، وتُنسئُ في الأجل [2] .

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٦٦ .

(٢) الكافي ٢/ ٤٧٠ ، الحديث ١٣ .

الدّرس الثالث

- العدل الإلهي .
- مظاهر العدل .
- القضاء والقدَر .
- اختيار الإنسان .

ثاني الأصول

العدل

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

العدل الإلهي

يعتقدُ المسلمون جميعاً بعدل الله تعالى ، والعَدلُ من الصفات الإلهيّة الجماليّة ، وقد نزّه القرآن الكريم ساحة الحق سبحانه عن أيّ نوع من أنواع الظلم ، فقال : ﴿إنّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرّةٍ﴾ وقال : ﴿إنّ اللهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً﴾ .

أمّا العقل فإنّه يحكم بالعدل الإلهيّ ، لأن العدل صفة كمال ، ولأنّ الظلم صفة نقص ، وقد ثبت عقلاً أنّه تعالى جامعٌ لصفاتِ الكمالِ ومنزَّهٌ عن العيب والنّقص .. وبما أنّ الظلم نابعٌ من جهل الفاعل بقبح الظلم ، أو احتياج فاعله إلى الظلم مع عِلمه بقبحه ، أو عجزه عن القيام بالعدل ، أو كونه سفيهاً غيرَ حكيم فهو يأتي بالظلم رغم علمه بقبحه ورغم قدرته على العدل ، أو كونه ضعيفاً ، لقول الإمام (ع) : **وإنّما يحتاج إلى الظلم الضّعيف** .

ومن الواضح أنّه لا يمكن قبول احتمال من هذه الاحتمالات في حقّ الذات الإلهيّة ، لأنّه تعالى منزّه عن الجهل والعجز والاحتياج والسّفَه والضّعف ..

قال الشيخ الصدوق رحمه الله : والدليل على أنّه لا يقع منه عزّ وجلّ الظلم ولا يفعلهُ أنّه قد ثبت أنّه تبارك وتعالى قديم غنيٌّ عالم لا يجهل ، والظلم لا يقع إلاّ من جاهل بقبحه أو محتاج إلى فعله منتفع به [1].

وقال المحقّق الطوسي رحمه الله : واستغناؤه وعلمه يدلاّن على انتفاء القبح عن أفعاله تعالى [1] .

ولّما اتفق المسلمون على ثبوت العدل له تعالى ، وثبت عندهم ذلك عقلاً ونقلاً ، اختلفوا في تفسير العدل الإلهي عند مسألة الحسن والقبح العقليّين على مدرستين ..

المدرسة الأولى : يدرك العقل البشريّ السليم حسنَ الأفعال وقبحها ، ويعتبر الفعل الحسَن علامةً على كمال فاعله ، ويعتبر الفعلَ القبيحَ علامةً على نقصان فاعله ، وبما أنّه سبحانه جامعٌ لجميع صفات الكمال فإنّ فعلَه كاملٌ ومحمودٌ وذاته منزّهةٌ عن كلّ فعلٍ قبيح

(١) توحيد الشيخ الصدوق ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .

(١) كشف المراد ص ٣٠٥ .

وقد جاء القرآن الكريم بتأييد العقل في إثبات ذلك ، ويُطلقُ على القائلين بهذه النظرية **العَدليّة** ، وفي طليعتهم الشّيعة الإماميّة .

المدرسة الثانية : العقل البشريّ عاجزٌ عن إدراك الحُسن والقُبح في الأفعال مطلقاً ، والطّريق إلى معرفة الحسن والقبح هو الوحي الإلهي ، فما أمرَ به اللهُ تعالى فهو حَسَنٌ وما نهى عنه فهو قبيحٌ ..

وعليه .. إذا أمر اللهُ تعالى بإلقاءِ بَريءٍ في النار أو أمر بإدخال عاصٍ إلى الجنة كان ذلك حسناً وعدلاً ، وحتّى وصف الله بالعدل فإنّه ليس إلاّ لكون هذا الوصف جاء في القرآن الكريم .

مظاهر العدل

للعدل الإلهي مظاهر مختلفة في مجالات التكوين والتشريع والجزاء ..

١ . **العَدل التكوينيّ** : وهبَ الله تعالى بعدله لكلّ مخلوق من مخلوقاته ما يليقُ به ويلزمُهُ من حيث القابليّات والإمكانيّات ، قال تعالى : ﴿**رَبُّنا الّذِي أَعطَى كلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ .

٢. **العدل التشريعيّ** : توالت مننُ الله تعالى على الإنسان بإرسال الأنبياء وتشريع القوانين الدينيّة ، عدلاً منه سبحانه ، حيث يرفع الله تعالى بالأحكام مستوى الإنسان إلى الكمال ويحميه من السقوط والتردّي ، كما يقول تعالى : ﴿**إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ وَالإِحْسانِ وإيْتاءِ ذِي القُرْبى ويَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾.

ولم يُكلّف الإنسان بما هو فوق طاقته ووُسعه ، قال تعالى :﴿ **لا يُكَلّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها**﴾ .

٣. **العدل الجزائي** : ليس المؤمن والكافر والمحسن والمسيء على حدّ سواء عند الله تعالى ، بل يجازي كلّ عامل بما يستحقّ ، فيثيبُ المحسنَ ، ويعاقبُ المسيء ، قال تعالى : ﴿**وَنَضَعُ المَوازِيْنَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفْسٌ شَيئاً**﴾ ، ولا يعاقبُ مَن لم تبلُغهُ تكاليفهُ عن طريق الرسل لأنّه لم تتم عليه الحجّة ، قال تعالى : ﴿**وما كنُّا مُعَذّبينَ حَتّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾.

القضاء والقدر

القضاء والقدر من العقائد المسلَّمة الّتي نصّ عليها القرآن الكريم ، وأكّدت عليها السنّة الشريفة ، وأيّدتها براهين العقل القاطعة ، والآيات التي تتناول العقيدتين كثيرة ، منها في القدَر : ﴿**إنّا كلَّ شيءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَر**﴾ ومنها في القضاء : ﴿**وَإذا قضى أمْراً فَإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكونُ**﴾ .

ومع وجودها في الكتاب والسنّة فإنّه لابدّ من الاعتقاد بها إجمالاً من دون إلمام بتفاصيلها وجزئياتِها ، ومن المعلوم أن الخوض في مسائلها الدّقيقة يتطلّب قابليّة فكريّة خاصّة ، وقد يخوضها من لا قابليّة له فيقع في الضلال في نهاية المطاف ..

قال أمير المؤمنين عليه السلام : طَريقٌ مُظْلمٌ فَلا تَسْلكوهُ ، وبَحرٌ عَميق فَلا تَلِجُوهُ ، وسِرُّ الله فلا تَتكَلَّفوه [1] .

---

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار / ٢٨٧.

ومن المؤكّد إنّ كلامه عليه السلام ليس موجّهاً لجميع المستويات ، بل هو موجّهٌ لذوي القابليّات المتواضعة ، ويدلّ على ذلك أنّه عليه السلام تصدّى في أكثر من مقام إلى بيان مسألة القضاء والقدر ، ولهذا فإنّنا سنبيّن المسألة في صورة مختصرة .

أمّا من حيث اللغة .. فالقَدَر هو المقدار ، والقضاء هو الحَتم والجَزم ..

ويقول الإمام الرّضا عليه السلام : القَدَرُ هي الهَنْدَسَة ، وَوَضْعُ الحُدود من البقاء والفَناء ، والقضاء هو الإبرامُ وإقامة العين [1] .

اختيار الإنسان

الاعتقاد بالقَضاء والقَدَر لا ينافي اختيار الإنسان ، فقد جرى تقدير الله تعالى للإنسان على أن يكون فاعلاً مختاراً مريداً ، وأن يكون

---

(١) أصول الكافي ج ١، ص ١٥٨.

فعلُهُ وتركُهُ لأعمالِه تحت اختياره وبإرادته ، فخلقَة الإنسان مجبولةٌ على الاختيار ، وهذا هو معنى القضاء الإلهي بكلّ بساطة ..

فإذا زعم البعض أنّه عصى من واقع التقدير الإلهي وأنّه لا يقدر على مخالفة هذا التقدير .. قيل له أنّ العقل والوحي يرفضان هذا التصوّر ، فالإنسان بنفسه هو الّذي يختار مصيرَه ، فبيده أن يكون إنساناً شاكراً صالحاً ، أو كافراً طالحاً ، قال تعالى : ﴿**إنّا هَدَيْناهُ السَّبْيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفُوراً**﴾ .

ويندّد القرآن الكريم بتصوّر الوثنيّين الذين يحسبون أن ظلالهم ناشيءٌ عن المشيئة الإلهية ، قال تعالى : ﴿**سَيَقولُ الّذين أشرَكُوا لو شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمنا مِن شيءٍ**﴾ ..

ثمّ يردّ عليهم : ﴿**كَذلِكَ كَذَّبَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقوا بأسَنا**﴾ .

ولابدّ من معرفة أنّ سُنَنَ الله تعالى في الخلق التي تؤدّي إلى سعادة الإنسان أو شقائه هي بعض مظاهر القضاء والقَدَر ،

والإنسان هو الّذي يختار سبيله من بينهما ، وحقيقة اختيار الإنسان حقيقةٌ مسلّمةٌ وواضحةٌ ، ويستنتجها العاقل مع أدنى تأمّل ..

لاحظ .. أن كُلّ شخص قادرٌ على أن يختار في قراراته وأفعاله .. يفعل أو يترك ..

ولاحظ .. أنّ النّاس يمدحون ويذمّون الأشخاص بناءً على فعلهم ، وبذلك فإنّهم يفترضون أنّهم يتخيّرون في أفعالهم ، وإلاّ لما كان المدحُ والذمّ منطقياً ..

ولاحظ .. لو لم يكن الإنسان مختاراً لكانت الشرائع السماويّة عابثة وكانت تشريعاتها لغواً ، فلو كان مضطرّاً على أفعاله فلا معنى للتكليف ولا للثواب والعقاب أصلاً .

إلاّ أنّ مبدأ حريّة الإنسان لا يعني كون الإنسان مطلق العنان في التصرّف ، وأنّه ليس له تعالى تأثيرٍ في فعله ، فهذا التفويض يتنافى مع كون الإنسان محتاجٌ لله تعالى دائماً ، وفي المقابل فإنّ ذلك يحدّد دائرةَ القُدرة الإلهيّة ، ومن هنا فقد ذَهَبَ فريقٌ إلى القول بأنَّ الإنسان مجبور

مسيَّر ، وذَهَبَ فريقٌ آخر إلى أنّه كائنٌ متروكٌ لحاله مفوّضٌ إليه وليس لله تعالى تأثيرٌ في أفعاله ..

حصَر هؤلاء طرق الحلّ في طريقين .. فإمّا أن نسند الفعلَ إلى الإنسان .. وإمّا نسنده إلى الله تعالى .. في حين أنّ المعصومين عليهم السلام فتحوا أعيننا على طريقٍ ثالث !

قال الإمام الصادق عليه السلام : لا جَبرَ ولا تفويضَ ، ولكن أمرٌ بَين أمرين [1] .

فالفعل صادرٌ من فاعله .. والقدرة من الله تعالى ، وكلام الإمام عليه السلام متطابقٌ مع القرآن الكريم حيث قال : ﴿ **وما رَمَيْت إذ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمى**﴾ .. فالنبيّ صلى الله عليه وآله قد رمى بمعونة الله تعالى وقدرته .

(١) توحيد الشيخ الصّدوق ، ب ٥٩ ح ٨ .

الدّرس الرّابع

- اهميّة النبوّة .
- اهداف الرسالة .
- كيف اعرف الأنبياء .
- المعجزة والكرامة .
- السّحر والمعجزة .

ثالث الأصول

النبوّة

﴿مُحمّدٌ رسولُ اللهِ﴾

اهميّة النبوّة

حمّل الله تعالى رسالته الأنبياء والرسل عليهم السلام لهداية الإنسان ، وأرسلهم بالشرائع مع بداية تاريخ البشريّة على الأرض وحتّى نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لتحقيق هذا الهدف ، وبهَدْي النبوّات تكامل الإنسان وبلغ هدف وجوده وخلقه ، والوحيُ الإلهي هو من فتح له طريق الكمال وأجاب على أسئلته الملحّة ..

فالعقل لا يبلغ الغاية لولا هداية الرّسل ، ومع اختلاف البشريّة في القضايا والشؤون المختلفة يثبت قصور الإنسان عن درك قضاياه دركاً صحيحاً ، فهم بحاجة ماسّة إلى القادة الإلهيّين ..

فالعَقل البشري والعلوم التجريبيّة قاصران عن معرفة حاجة الإنسان الكاملة ، لكنّ خالق البشَر عارفٌ محيط بحاجة الإنسان الكاملة وأسرار وجوده كلّها .

وعند تدقيق النظر .. نجد أنّ مناهج البشريّة قاصرة محدودة خاصّة ، ونجد أن مناهج الأنبياء عليهم السلام جامعة شاملة عامّة متكاملة ، ولهذا فإنّ البشرية مفتقرة في حياتها إلى مناهج السماء بشكل مستمر ..

اهداف الرسالة

بيّن القرآن الكريم لنا أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام في أكثر من آية ..

منها : قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنا في كلّ أُمّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطّاغوتَ**﴾ فالهدف عبادة الله تعالى وتوحيده وتنزيه العقيدة عن الكفر والشرك والإنحراف .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ليعلم العبادُ ربّهم إذ جهلوه ، وليقرّوا به بعد إذ جحدوه ، وليثبتوه بعد إذ أنكروه[1] .

ومنها : قوله تعالى : ﴿**هُوَ الّذي بَعَثَ في الأُميّين رَسُولاً مِنهُمْ يَتْلُوا عَلَيهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ**﴾ فالهدف تعليم الإنسان وتزكيته وتهذيبه .

ومنها : قوله تعالى : ﴿**لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيّناتِ وأنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ والمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ فالهدف إقامة القِسط والعدل في المجتمع البشريّ .

ومنها : قوله تعالى : ﴿**كانَ النّاسُ أُمّةً واحِدةً فَبَعَثَ اللهُ النبيّينَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرِينَ وأنزلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بِالحَقّ ليَحكُمَ بينَ النّاسِ فِيما أخْتَلَفُوا فيهِ**﴾ فالهدف هو الفصل في الخصومات وحَلّ الخلافات في مجالات الحياة المتنوّعة .

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٤٧.

ومنها : قوله تعالى : ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاس عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ فالهدف إتمام الحجّة على العباد .

وبما أنّ الله تعالى قد خلق الإنسان من أجل أهداف معيّنة فلا بدّ أن تصل تعاليمه إلى البشرية ، بحيث تتم الحجة البالغة على النّاس كافّة ، ولا يبقى عذرٌ لأحدٍ إطلاقاً .

كيف أعرف الأنبياء ؟

العقل يحكم برفض أيّ دعوى من غير دليل ناهض ، والنبوّة من أخطر الدعاوى وأهمّها في حياة الإنسان ، فلابدّ أن تستند إلى برهان قوي وحجّة قاطعة ، ولهذا فيمكننا إثباتها بأحد هذه الطّرق ..

١ . **تصريح النّبيّ السّابق** : إذا ثبتت نبوّة النبي السّابق بالأدلّة القاطعة فيمكن الاعتماد على تصريحه في تحديد النبي اللاحق ، كما ورَد في تصريح النّبي عيسى عليه السلام بنبوّة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم مبشّراً به من بعده .

٢. **قيام القرائن والشواهد** : إذا شهدت القرائنُ والشواهد المحصّلة من سيرته ومحتوى دعوته ومن الشخصيات التي آمنت به ، أو من طريقة دعوته ، فيمكن ثبوت دعوى نبوّته ، وقد أعمل كثيرون هذه الطريقة مؤكّدين صِدق رسول الله ﷺ في دعوته .

٣. **المُعجزة** : إذا قَرَن دعوى النبوّة بعملٍ خارقٍ للعادة متحدّياً الآخرين بمعجزته ثبتت نبوّته ، وهذه طريقة عامّة قد ساقت البشريّة على طول تاريخها لمعرفة الأنبياء عليهم السلام ..

فالعلاقة بينَ المعجزة وبينَ صدق دعوى النُبوّة علاقة منطقيّة جداً ، فإنّه إذا كان صادقاً خرَق الله تعالى له نظام الوجود بالمعجزة ، وإذا كان كاذباً لم يتمكّن من الإتيان بالمعجزة .

المعجزة والكرامة

المعجزة هي الإتيان بالعَمَل الخارق للعادة مقروناً مع دعوى النبوة متفقاً مع الادّعاء ، فإذا صدر العمل الخارق للعادة من وليٍّ لله تعالى أو عبد صالح من غير نبوّة سُمِيّ كرامة .

إذ قد يجري خرق العادة لغير الأنبياء ، كما في نزول المائدة السماويّة على السيدة مريم عليها السلام ، قال تعالى : ﴿**كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيّا المِحْرابَ وَجَد عِنْدَها رِزْقاً**﴾ .. وانتقال عرش بلقيس ملكة سبأ في سرعة خاطفة من اليمن إلى فلسطين على يد آصف بن برخيا ، قال تعالى : ﴿**وقالَ الّذي عِنْدَهُ علْمٌ مِنَ الِكتابِ أَنا آتِيكَ بِهِ قبْلَ أنْ يرتَدَّ إليْكَ طرفُك**﴾ .

وقد تطلق المعجزة على خرق العادة لغير الأنبياء عليهم السلام مساحة ، أو بحسب المعنى اللغوي لا الاصطلاحي ، ويمكن أن نطلق المعجزة على خرق العادة إذا صدر عن الحجج الطّاهرين من أهل البيت عليهم السلام من باب أنّ ما يصدر منهم دالٌّ على نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم فهي معاجز له لأنّهم أوصياؤه عليهم السلام .

السّحر والمعجزة

يمكننا أن نختصر الفرق بين السحر والمعجزة في فوارق معيّنة ..

١. **التعلّم** : السّاحر يتعلّم ويتمرّن حتّى يتمكّن من الإتيان بأعماله ، أمّا النبي فلا يأتي بالمعجزة من غير تعلّم ، فالله سبحانه هو الذي أمر موسى عليه السلام بإلقاء عصاه ! .. فإذا بها تتحول إلى ثعبان عظيم ، بحيث استوحَشَ منها .

٢. **إمكان المعارضة** : يمكن معارضة السحر والشعوذة بمثلها ، لأنها من قدرة البشر المحدودة ، أمّا المعجزة فلا يمكن معارضتها والإتيان بمثلها .

٣. **التحدّي** : يأتي النبي بالمعجزة مصحوبة بالتحدّي ولا يمكن معارضته ومقابلته بالمثل .. أمّا السّاحر فلا يتحدّى لإمكان معارضته بالإتيان بمثل ما عنده .

٤. **الهدف** : يتحلّى الأنبياء عليهم السلام حين يُعجزون بالغايات السامية والأغراض القيّمة ، بينما يرمي السحرة إلى أهدافٍ دنيويّة تافهة .

الدّرس الخامس

- عصمة الأنبياء .
- القرآن الكريم .
- شواهد النبوّة .
- معاجز كثيرة .
- امتيازات الرسالة .

عصمة الأنبياء

يتّفق المسلمون جميعهم على عصمة الأنبياء عليهم السلام في تلقّي الوحي وإبلاغه ، ولا يمكن التشكيك في ذلك لأنّه سيؤثر على الثقة في أقوالهم عليهم السلام وأفعالهم .. إلاّ أنّهم يختلفون في عصمتهم عليهم السلام من كل معصية وذنب في مجال العمل بأحكام الشريعة .. وقالت الإماميّة بعصمتهم عصمةً مطلقةً ، لأنّهم إذا لم يلتزموا بالأحكام الإلهيّة التي كُلّفوا بتبليغها لم يؤثّروا في النّاس ، وللنّاس حجّة في مخالفتهم ، ولن

يثقوا بكلامهم .. قال المحققُ الطوسيُّ : ويجب في النبيّ العصمةُ ليحصلَ الوثوقُ فيحصل الغرضُ[1] .

وتدلّ على عصمة الأنبياء عليهم السلام عن المعصية آيات من الكتاب ، منها قوله تعالى : ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .. فالاجتباء والهداية تقتضي العصمة من كل ذنب .

ويدلّ البُرهان العَقليّ على عِصمة الأنبياء عليهم السلام قبل البعثة أيضاً ، لأنّ من يصرف شطراً من عمره في المعاصي ثم يحمل لواء الهداية والفضيلة لا يحوز على ثقة النّاس وانقيادهم ، ويمكن لمعارضيه أن يطعنوا فيه ويحطّوا من شأنه بذكرهم مساوئه قبل البعثة .

وإنّ من أهم نجاح دعوة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم عيشُه بطهر ونقاء قبل البعثة ، حتّى لُقّب بالصّادق الأمين في تلك الأجواء الفاسدة ، ولا مطعن فيه أبداً .. وبديهيٌّ أنّ الحكمة الإلهيّة تقتضي اختيار الأكمل .

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص ٢١٧ .

ومن عقائد الإماميّة عصمة الأنبياء عليهم السلام عن الخطأ والزلل ، مضافاً على عصمتهم من الذنوب ، فهم معصومون في القضاء والمنازعات والفصل في الخصومات ، وبما أنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم كان مأموراً بالقضاء على وفق البيّنة واليمين فإنّه ملتزم بذلك رغم خطأ البيّنة أو كذب الحالف ..

ومعصومون في تشخيص موضوعات الأحكام الشرعية ، فلا يخطأ النبي في تشخيص أنّ هذا السائل خمرٌ مثلاً ، ولا يزلّ في القضايا اليوميّة العاديّة ، فالخطأ في هذه المجالات ملازمٌ للخطأ في مجال الأحكام قطعاً ، وهو ينافي اختيار الله تعالى لأنبيائه عليهم السلام ، الذين برّأهم من الخطأ وحتّى من الأمراض والعاهات الجسمية وبعض الخصال الروحيّة التي توجب نفرة النّاس وابتعادهم .

القرآن الكريم

ثبتَت نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم بالطرق الثلاثة التي قدمناها لتشخيص دعوى النبوّة ، وقد قرَن دعوته بمعجزة القرآن الكريم الخالدة مضافاً

إلى معاجز عديدة ، وتحدّى مكذّبيه أن يأتوا بمثله ، ولم يستطع أحدٌ أن يأتي بمثله ، ولا يزال القرآنُ حتى يومنا هذا يتحدّى الجميع : ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الِإنسُ والجِنُّ على أنْ يَأْتوا بِمثْلِ هـذَا القرآنِ لا يَأتونَ بَمثلهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً**﴾ .. وفشل أعداء الإسلام رغم جهودهم الكبيرة في معارضة هذا القرآن الكريم .

وهذا هو القرآن الكريم اليوم بعد مرور هذه الأزمنة صامدٌ بتحدّيه ، ليثبت أنّ كلامه فوق كلام البشر ، ويبقى معجزة خالدة بتجدّد الليالي والأيّام ، ليثبت الشريعة الخاتمة والرسالة الخاتمة ..

لقد سحرَت كلمات القرآن الكريم وعجيب تركيباته ألباب العرب ، وتحيّر أرباب البلاغة والفصاحة بحسن بيانه ، فخضع عمالقة اللغة وأركان الأدب وأبطال الشعر أمامه ، واعترفوا بكونه فوقَ كلام البشر .. فالوليد بن المغيرة وهو من كبار بلغاء قريش يسمع آيات القرآن ثمّ يقول : والله إنّ لِقَوله الّذي يقولُ لَحلاوةً ، وإنّ عليه لطَلاوةً ، وإنّه لُمثْمرٌ أَعلاهُ ، مُغدِقٌ أَسْفَلُهُ ، وإنّه لَيَعْلُو وما يُعلى .

وعندما أشرقت شمسُ الإسلام على خارج جزيرة العرب بدأ المفكّرون ينفتحون على الجوانب الأخرى في عظمة هذا الكتاب، ومع تجدّد الأزمان تكشّفت جوانب غير متناهية لعظمته وإعجازه.

أمّا نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله الذي بُعث بهذا القرآن الكريم فإنّه كان أمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب كي لا يتطرّق الشّك إليه من هذا الجانب، قال تعالى: ﴿**وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لاْرتابَ المُبْطِلُونَ**﴾.

وجاء القرآن الكريم متناغماً متكاملاً منسجماً على وتيرة واحدة، وتماشى كلّ ذلك مع كلام النبي صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره..

وهذا يدلّ على أنّ الله تعالى هو منزّل الكتاب على رسوله، قال تعالى: ﴿**أفَلا يَتَدبَّرُون القرآنَ ولو كانَ مِنْ عِند غيرِ الله لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً**﴾.

وتعرّض إلى أسرار عالم الخلق التي لم يكن للبشريّة أيّ إلمام بها ، فأشار إلى قانون الجاذبيّة الذي يفسّر قيام صرح الكون في كلام مختصر فقال : ﴿اللهُ الَّذي رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ترونَها﴾ .

وأخبر عن حوادث مستقبلية قبل وقوعها ، فعندما غلبَ عبدة النّار الفُرسُ الرّومَ الموحّدين تفاءَلَ المشركونَ العرب وقالوا سننتصر على المسلمين أيضاً ، فردّ عليهم القرآنُ الكريمُ مخبراً بانتصار الرُّوم على الفُرس ، فقال : ﴿غُلِبَتِ الرُّوْمُ في أدْنى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِيْنَ لله الأمرُ مِن قبلُ ومِن بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفرَحُ المؤمنونَ﴾ ..

وتحقّقت النبوءة بمرور بضع سنوات وانتصر الرّوم المسيحيّون على الفرس ، وانتصر المسلمون في الجزيرة العربية على أعدائهم .

شواهد النبوّة

تدلّ القرائن والشّواهد على صحَّة دعوى نبينا الكريم ﷺ ، فسوابقه المشرّفة دالّة على شرف مقامه وعلوّ شأنه ، فكانت قريش

تسمّيه الصّادق الأمين وتودع عنده أماناتها ، ولّما وقع الخلاف بين قبائل قريش في وضع الحجر الأسود مكانه بعد تجديد بناء الكعبة رضيَ الجميعُ به ﷺ حكماً لمكانته فيهم .

ونشأ ﷺ في بيئةٍ متحلّلة على جميع الأصعدة ، سادت فيها روح الغاب وانتشر فيها الخمر والميسر ووأد البنات وأكل الميتة والظلم .. ولم يتأثّر بها ، فكان نقيّاً طاهراً من الرّذائل ، وجاءت دعوته تنهى عن تلك الموبقات والأعمال الذميمة .

وبعث ﷺ مستخدماً أرقى الوسائل الإنسانيّة والأخلاقيّة لنشر دعوته ، والبعد الأخلاقي واضح على سلوكه وتعاليمه في الحرب والسّلم ، فكان يوصي في الحرب ألاّ يُلحَق الأذى بالنساء والأطفال والعجائز وكبار السّن وألاّ تُقطَع الأشجار وألاّ يُبتدأ في قتال العدوّ قبل إتمام الحجة عليه .

فالغاية عنده لا تبرّر الوسيلة في كلّ الأحوال ، وهذه حياتُه مليئة بالنبل وسعة الصّدر وحسن الخلق ، وإذا تأمّلنا حال أصحابه

وأنصاره المؤمنين به ﷺ وأحوالهم تبيّن لنا مدى صدقه وصحّة دعواه ، فانظر في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسلمان وعمّار والمقداد وأبي ذر لترى الطهر والصفاء وسموّ الشخصية والعفّة والنزاهة .

لقد استطاع ﷺ في مدة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة أن ينعطف بتاريخ الدّنيا ويغيّر الجزيرة العربية تغييراً جوهرياً ..

فحوّل الجهلاء إلى علماء ، وعبّاد الأوثان إلى موحّدين ، ورفع شأنهم إلى أن صنع بهم حضارة تمدّ نورها إلى أطراف الأرض ، وصار لهم كيانٌ عظيم .

يقول جعفر بن أبي طالب عليه السلام للنجاشيّ ملك الحبشة :

أيّها المَلِك ، إنّ الله بَعَث إلينا رَسولاً مِنّا ، فَدعانا إلى الله لِنوَحّدَه ونعبدَه ، ونخلعَ ما كنّا نعبُدُ نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة

والأوثان ، وأمَرَنا بصدقِ الحديث .. وأمَرَنا بالصلاة والزكاة وصلة الرّحم وحُسن الجوار ، ونهانا عن الفواحش وقول الزُّور [1].

مضافاً إلى ما سبق من قولنا أنّه إذا ثبتت نبوة النبيّ السابق بالأدلّة القاطعة كان كلامُه سنداً قاطعاً في إثبات النبوّة اللاحقة ، ومن الواضح أنَّ أهلَ الكتاب كانوا يعرفون نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كما يعرفون أبناءهم لعلمهم بعلائم نبوَّته الواردة في كتبهم السَّماوية ..

قال تعالى : ﴿**الّذيْنَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أبناءَهم وإنَّ فريقاً منهم لَيَكتمونَ الحقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ .

وهي دعوى صادقة لم يكذّبها أهل الكتاب ، وثبتَ كذلك أنّ عيسى النبي عليه السلام قد بشّر به باسمِه فقال تعالى : ﴿**ومُبَشّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعدِي اسْمُهُ أحْمَدْ**﴾ .

(١) السيرة النبويّة لابن هشام ج ١ ص ٣٥٩.

والخلاصة : أنّ هذه شواهد وقرائن نعرف من خلالها صدق قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه رسول من عند الله تعالى ، ومن كانت فيه كل هذه الخصوصيّات لا يكذب أبداً .

معاجز كثيرة

حفلت دعوة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بمعاجز كثيرة غير القرآن الكريم ، إلاّ أنّ القرآن هي معجزته الكبرى الباقية ، وكان الحال يقتضي أن يثبت رسالته بمعاجز أخرى في مناسباتٍ مختلفة ليقيم الحجّة على النّاس ، كما كانت معاجز موسى وعيسى عليهما السلام متعدّدة أيضاً ، فمن معاجزه صلى الله عليه وآله وسلم ..

١ . **شقّ القمَر** : حين شرط المشركون عليه ذلك ليؤمنوا بدعوته ، فشقّ الله تعالى له القمَر نصفين ، كما قال تعالى : ﴿**إقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ * وإنْ يَرَوْا آيَةً يُعرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُستَمِرٌّ**﴾ .

٢ . **المعراج** : عروجه في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهي من المعاجز التي ذُكِرت في القرآن الكريم ، قال تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّـذِي أَسْرَى بِعَبْـدِهِ لَـيْلًا مِـنْ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ إِلَى الْمَـسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

٣. المباهلة : قام النبي ﷺ بدعوة طائفة مـن أهـل الكتـاب إلى المباهلة لإثبات صدق نبوّته ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْـدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ فقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأَبْناءَكُمْ ونِساءَنا وَنِسَاءَكُمْ وأنفُسَنَا وأنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكاذِبِين﴾ .

فالمباهلة تنتهي بفناء أحد الفريقين المتباهلين ، وقبَل ﷺ ذلـك ، فلمّا شاهد النصارى ثباته العجيب وإخراجه خيرة أهل الأرض وأعز الخلق عنده وأهل بيته الطّاهرين ، عليّاً وفاطمـة والحسن والحسين عليهم السلام .. انسحَبُوا وقبلوا شروطه .

وما ذكرهُ المؤرّخون من معاجز له ﷺ يفـوق مـا جـاء ذكـرُه في القرآن الكريم ، وأغلبها متواترة ، وكلّها تشهد بصدق دعوته ﷺ .

امتيازات الرسالة

تمتاز رسالة الإسلام بامتيازات خاصة على الرسالات ، أهمّها ..

١. **العالَميّة** : لا تختصّ الرسالة بقوم دون قوم أو منطقةٍ دون أُخرى : ﴿**وَما أرْسلْناكَ إلاّ كافّةً للنّاسِ بَشِيراً وَنَذِيْراً**﴾ ، وقال : ﴿**وَمَا أرْسَلْناكَ إلاّ رَحْمَةً لِلعالَمِين**﴾ .

٢. **الخاتميّة** : هي النبوّة الخاتمة ، كما أنّ الشريعة خاتمةُ الشرائع ، والكتاب خاتمُ الكتب أيضاً ، وبهذا نعرف إنّ الإسلام ناسخٌ لجميع الشرائع السابقة ، ونعرف أنّه لا توجدُ شريعة سماويّة في المستقبل ، وقد أكّد القرآن الكريم خاتمية النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿**ما كانَ مُحَمَّدٌ أبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِن رَسُولَ الله وَخاتمَ النَبِيّين وكان اللهُ بِكُلّ شَيءٍ عَليْماً**﴾ .

وفي حديث المنزلة ، قال النبي الكريم ﷺ لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام : أما ترضى أنْ تكونَ منّي بِمَنزلةِ هارونَ مِن مُوسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بَعدِي [1] .

٣. **الكامليّة** : كمال الرسالة من أهم خصائصها ، فهي تغطّي حاجة الإنسان الطبيعيّة والفطريّة بأكمل برنامج عرفته الإنسانيّة ، فقد تكفّلت الشريعة بسن القوانين والأحكام العمليّة التي تلبّي حاجة البشرية المتجدّدة .

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٢٩ دار الفكر ، صحيح مسلم ٢ / ٣٦٠ طبع الحلبي ، صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٠١ ح ٣٨٠٨ ، مسند أحمد بن حنبل ج ٣/ ٥٠ ح ١٤٩٠ ، سنن ابن ماجة ج ١ / ٤٢ ح ١١٥ و ١٢١ طبع دار إحياء الكتب ، ومصادر أخرى .

الدّرس السّادس

- الإمامة .
- حكم العقل .
- النّص على الإمام .

رابع الأصول

الإمامة

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾

الإمامة

انقطع الوحي بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان عُمر الدعوة ثلاثة وعشرين سنة ، أدّى فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم الرسالة بجهد وصدق وأمانة ، ولم يكن نبيٌّ بعده ولا شريعةٌ بعد شريعته ، غير أنّ الوظائف والتكاليف التي كانت على عاتقه صلى الله عليه وآله وسلم لم تنتهِ برحيله من الحياة حتماً ، وإن انتهى تلقّي الوحي ..

ولا خلاف في ضرورة قيام شخصيّة مؤهّلة من بعده لتواصل مسيرة الأمّة ، فالمسلمون بحاجة إلى إمامٍ يقودهم إلى الهُدى والحق ، وهذا أمرٌ اتّفق عليه المسلمون ، إلاّ أنّ الشيعة والسنّة اختلفوا في صفات الإمام وطريقة تعيينه .

وقالت الشيعة الإماميّة بأنّ الإمامة شأن إلهي سماوي ، فمن اللازم أن يُعيّن النبي ﷺ خليفته ووصيّه من بعده ، وقد قامت الأدلّة العقليّة والنقليّة على ذلك ..

حكم العقل

يعدّ النبي ﷺ من أعظم شخصيّات البشريّة تأثيراً في تأريخ الإنسان ، فقد مهّد الأرضيّة المناسبة لقيام حضارة كبرى أساسها شريعة الدّين ، وأرسى معالم الدّين والفكر بجهود مضنية ، وتحمّل الصّعاب والمتاعب ، ولابدّ من وسيلة مؤثّرة تواصل هذه المسيرة ، وتحمي الدّين من بعده ..

ومسلّم أن يكون ﷺ قد فكّر لحفظ شريعته من الأخطار المحتملة ، ولابدّ من تعيين قيادة تقود الأمّة إلى الصلاح والهداية من بعده ، فليس من المعقول أن يعتمد على قواعد شريعة خالدة أبديّة دون طرح صيغة قويّة للقيادة ، ليضمن بها بقاء تلك الشريعة .

لقد بيّن رسول الله ﷺ صغائر الأمور ، فلا يُعقل أن يسكت في أمر تقوم عليه سعادةُ البشرية وفلاحُها ، فمسألة القائد الذي يخلفه من المسائل المصيريّة ، فلا يمكن أن يهمل بيانها ويترك الأمّة لتختلف عليها من بعده ، ولا يجوز أن يفارقها وهي لا تعرف واجبها تجاه هذه المسألة ..

فلا يُقبل مطلقاً أن يقال أن نبيّنا الكريم ﷺ رحل من هذه الدّنيا دون أن يحدّد مصيرها ويعيّن قائدها من بعده .

فإذا ما أخذنا بالنظر الظروف التي كانت تحيط بالمنطقة عند رحيله ﷺ وجدناها تتهدّد الدّين والكيان الإسلامي كلّه .. أمّا الأخطار الخارجيّة فكانت متمثّلة في عدّة جهات ، ويكفي أن نعلم

أنّه ﷺ كان يجهّز في آخر أنفاسه جيشاً عظيماً بقيادة أسامة بن زيد لمواجهة الرّوم ، حتّى لعَن من تخلّف عنه ، وهذا يعني أنّ الرّوم خطرٌ قائمٌ يتهدّد الدين من بعده ..

وكان على حذرٍ شديدٍ من الإمبراطوريّة الفارسيّة ، فقد أقدم ملكها على تمزيق رسالته ﷺ له ، وكتب إلى حاكم اليمن يأمره بالقبض عليه ﷺ وإرساله إليه أو إرسال رأسه !

هذا .. مضافاً إلى خطر المنافقين ، الذين كانوا يعيشون في قلب دولته حركةً وفساداً ، وهم الخطر المحدق القريب منه ، وكانوا يسعون في أذاه ويحيكون المؤامرات والمكائد ضدّه ، وقد تحدّث القرآن الكريم عنهم بتفصيل في سُوَرِهِ المختلفة .

ويدرك من نظر في أحوال المدينة المنوّرة أنّ حياة أهلها كانت قبليّة وعشائريّة بشكل واضح ، والعصبيّة كانت تقود أفراد المجتمع إلى القبيلة والعشيرة ، وكان لرؤسائهم التأثير الكبير عليهم ، وهذه

وضعيّة تستدعي تعيين قائدٍ ديني يجنّب التشتت والتنازع بين هذه القبائل، وبهذا تفوت الفرصة على أعداء هذا الدّين ..

قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا : الاستخلاف بالنصّ أصوب ، فإنّ ذلك لا يؤدي إلى التشعّب والتشاغب والاختلاف [1] .

النّص على الإمام

اقتضت حكمة النبي الكريم ﷺ ومن ورائها إرادة الله تعالى أن تُحسم مسألة الخلافة من بعده بالنّص الصريح ، ولم يعتمد في ذلك على النّاس كي لا يقعوا في النزاع والخلاف ، فاختار شخصاً ممتازاً مناسباً وأعلن للأمّة أنّ الله سبحانه اختاره إماماً على الخلق ونصبه للخلافة من بعده ..

وكان النصّ حاضراً في مسيرة النبيّ الكريم ﷺ منذ بداية انطلاقته ، وقد تكرّر منه إعلان موقفه من هذه المسألة بشكل لا يقبل الشّك ، ولم يعوّل في هذا الأمر الحسّاس على الأمّة أبداً ..

---

(١) الشفاء / الإلهيات / المقالة العاشرة ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٤ .

وليست هذه المسألة من المسائل التي يدبّرها الإنسان قطعاً، لأنّها امتداد للنبوّة ولابدّ من الاختيار الربّاني فيها، ولهذا فقد تكرّر منه ﷺ تأكيد النّص على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ..

١ . حديث الدّار ..

لمّا مضت ثلاث سنوات على البعثة كلّف الله تعالى نبيّه ﷺ بتبليغ رسالته لعشيرته الأقربين، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، فجمع ﷺ كبار بني هاشم وقال: يا بني عبد المطّلب، إنّي والله ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومَه بأفضل ممّا قد جئتكم به، إنيّ قد جئتكُم بخير الدّنيا والآخرة، وقد أمرني اللهُ تعالى أن أدعوكم إليه، فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر يكون أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم.

وكرّر ﷺ عبارته الأخيرة ثلاثَ مرّات، ولم يقم في كلّ تلك المرّات إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام وأعلن عن استعداده لمؤازرة النبي ﷺ

ونصرته ، فقال النبي ﷺ في المرّة الثالثة : إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا [١] .

٢. حديث المنزلة ..

في هذا الحديث جعل النبي ﷺ منزلة أمير المؤمنين عليه السلام منه منزلة هارون من موسى ، ولم يستثن من مراتب هارون من موسى إلاّ النبوّة ، فقال ﷺ : يا عليّ أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من مُوسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي [٢] .

وكان لهارون عليه السلام مقام النبوّة بنصّ القرآن الكريم إذ يقول : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمتنَا أخاهُ هارُونَ نَبِيّاً﴾ ، ومقام الخلافة إذ يقول : ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْني في قَوْمِي﴾ ، ومقام الوزارة إذ يقول : ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي﴾ .

---

(١) مسند أحمد : ١/ ١٥٩ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٤٠٦ ، تفسير الطبري : ١٩/ ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) تقدّمت مصادره في المقدّمة .

وقد أثبت بهذا الحديث مراتب هارون عليه السلام لأمير المؤمنين عليه السلام إلاّ النبوّة، فهو عليه السلام وزيره صلى الله عليه وآله وخليفته بالنص الصريح.

٣. حديث السّفينة ..

شَبَّه النّبي صلى الله عليه وآله أهلَ بيته بِسَفينةِ نوح عليه السلام الّتي من رَكبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق في الطوفان، فقال صلى الله عليه وآله : ألا إنّ مَثَل أهلِ بيتي فِيكم مَثلُ سَفينة نُوح في قومه، مَن رَكبها نَجا، ومَن تَخلَّفَ عَنها غرِق (١).

ومعلومٌ أنّ سفينة نوح عليه السلام هي الملجأ الوحيد لنجاة الناس من الطوفان في ذلك الوقت، وعليه .. فإنّ أهلَ البيت عليهم السلام وفقاً لهذا الحديث هم الملجأ الوحيد لهذه الأمّة للنجاة من الحوادث والانحرافات، وبذلك يثبت وجوب الرّجوع والانقياد إليهم دون غيرهم.

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣/ ٣٥١، الصواعق المحرقة ص ٩١، ميزان الاعتدال: ١/ ٢٢٤، تاريخ الخلفاء ص ٥٧٣، ينابيع المودة ص ٢٨.

٤ . حديث أمان الأمّة ..

وصف النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته عليهم السلام بكونهم الأمان من الاختلاف والتفرّق وحذّر من مخالفتهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : النجومُ أمانٌ لأهل الأرض من الغَرَق ، وأهلُ بَيتي أمانٌ من الاختلاف ، فإذا خالَفتها قبيلةٌ من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس [1] .

وشبّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته عليهم السلام بالنجوم التي يقول عنها الله سبحانه وتعالى : **﴿وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾** ..

فكما يُهتدى بالنّجم في المسير والجهات في ظلمات الليالي الحالكة ، كذلك يُهتدى بأهل البيت عليهم السلام في الحياة ويُعتصم بهم من الضياع ، ويُستنار بهداهم من الفتن والجهل والضّلالة .

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣ / ١٤٩ .

٥. حديث الثّقلين ..

من أهم الأحاديث المتواترة التي رواها علماء الجمهور والحفّاظ في كتب الحديث ، فقد خاطب رسول الله ﷺ الأمّة قائلاً : إنّي تاركٌ فيكُم الثَقَلين كتابَ الله وَعترتي أهلَ بيتي ، ما إِن تَمَسَّكتُم بهما لَن تَضلُّوا أبداً ، وإنّهما لَن يَفتَرِقا حَتى يَرِدا عَليَّ الحَوض [1].

وهذا الحديث يُثبتُ أنّ لأهل البيت عليهم السلام المرجعيّة العلميّة والقيادة العامّة على الأمّة ، ويُلزم المسلمين بالتمسّك بهم عليهم السلام إلى جنب القرآن الكريم ، وهو الحديث الذي يجمع كلمة المسلمين ويوحّدهم تحت راية أهل البيت عليهم السلام ..

---

(١) صحيح مسلم ٧/ ١٢٢ ، سنن الترمذي : ٢ / ٣٠٧ ، سنن الدارمي : ٢ / ٤٣٢ ، مسند أحمد : ٣ / ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩وج ٥ / ١٨٢ و ١٨٩، الخصائص العلوية ، للنسائي ص ٢٠ ، ومصادر أخرى .

وإذا ما نظرنا في التاريخ وجدنا أنّ المسلمين تفرّقوا وتشتّتوا حين عزلوا أهل البيت عليهم السلام عن السّاحة العلميّة والسياسيّة والدّينيّة ، فظهرت المذاهب الكلاميّة والدّينيّة .

٦ . حديث الغدير ..

توالت النصوص على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مناسبات كثيرة ، وكلّ نصّ منها يمثّل الحجّة الكاملة لمن يلتمس الحقيقة ، ولكنّه صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يتمّ الحجّة البالغة ويوصل تعيين خليفته إلى مسامع القاصي والدّاني ، بشكل لا يقبل الشّك ..

فتوقّف صلى الله عليه وآله وسلم عند رجوعه من حجّة الوداع في أرض تسمى غدير خم ، وأرسل لمن تقدّم عليه بالرّجوع إليه وانتظر من تأخّر عنه ، ليلفتَ المسلمين إلى أهمّية هذا الموقف الذي فيه كمال الدّين وتمام النّعمة ..

إذ أنزل الله تعالى عليه : ﴿يَا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنـزِلَ إليـكَ مِـن رَّبِكَ وإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [1] .

ثمّ إنّ النبي ﷺ رقى منبراً من أقتاب الإبـل وحـدوجها وقـال مخاطباً النّاس : يوشك أن أُدعى فأجيب فماذا أنتم قائلون؟

قالوا : نَشهدُ أنّك قد بَلّغـتَ ونَـصحتَ وجَهَـدتَ ، فجـزاك اللهُ خيراً .

فقال ﷺ : أَلَستم تَشهَدون أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّـداً عَبـدُه ورسولهُ ، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها ؟ قالوا : بلى نَشهدُ بذلك .

قال ﷺ : فإنّي فَـرَطٌ ـ أي سـابقكُم ـ عـلى الحـوض ، فـانظروا كيف تَخلِفوني في الثّقلين ! فنادى مناد : وما الثّقَلان يا رَسولَ الله ؟

قال ﷺ : الثّقَلُ الأكبر كتـابُ الله ، طَـرَفٌ بيـد الله عـزَّ وجَـلّ ، وطَرَفٌ بأيديكُم ، فتمَسَّكُوا به لا تَـضِلُّوا ، والآخَرُالأصـغَر عـترتي ،

---

(١) لنزول الآية في حجّة الـوداع راجـع : الـدرّ المنثورللسيوطي ٢ / ٢٩٨ ، وفـتح القـدير للشوكاني ٢ / ٥٧ ، وينابيع المودّة للقندوزي ص ١٢٠ ، تفسير المنار ٦/ ٤٦٣ .

وإنّ اللطيفَ الخبيرَ نبّأني أنَّهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحَوضَ ، فلا تقَدّمُوهُما فتهلكوا ، ولا تُقَصِّروا عنهما فتَهلَكُوا ..

ثم أخذ بيد عليّ فَرفَعها حتى رُؤِي بياضُ آباطهما ، فعرفَه القومُ أجمعون ..

فقال ﷺ أيُّها الناسُ .. من أولى النّاس بالمؤمِنين من أنفسِهِم ؟

قالوا : اللهُ ورسولهُ أعلمُ .

قال ﷺ : إنّ الله مولاي ، وأنا مَولى المؤمِنِين ، وأنا أولى بِهِم مِن أنفسِهِمْ ، فَمَن كنتُ مَولاه فَعَلِيٌّ مولاهُ .. ثم قال ﷺ : اللّهُمَّ والِ مَن والاهُ ، وعادِ من عاداهُ ، وأَحِبَّ من أحَبَّهُ ، وابغض مَن أبْغَضَهُ ، وانصُر مَن نَصَرَهُ، واخذُل من خَذَلَهَ ، وأدِرِ الحَقَّ معه حيث دار ، ألا فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ الغائبَ [1] .

---

(١) وهذا الحديث متواترٌ ، رواه (١١٠) من الصحابة ، و (٨٩) من التابعين ، و (٣٥٠٠) من العلماء والمحدِّثين ، فلا يبقى أيُّ مجالٍ للشَك في صحّة هذا الحديث ، وراجع مصادره وأسانيده في كتاب الغدير للمرحوم العلاّمة الأميني (ره) .

مراد النبي ﷺ ..

تدلّ الشواهد الواضحة على أنّه ﷺ كان يريد بموقفه في غدير خم وخطبته أن يُنصّب أمير المؤمنين عليه السلام للخلافة والإمامة والولاية من بعده ، خصوصاً إذا ما أخذتَ بالعينِ هذه النّقاط ..

* لقد أمر رسولُ الله ﷺ بأن ينزل المسلمون في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا كِلاَ في وقت الزوال وتحت أشعّة الشَّمس الحارقة ، بحيث أنّ بعضهم كان يضع بعض عباءته تحت رجليه وبعضها فوق رأسه تَوقِّياً من شدّة الرّمضاء وحرارة الشّمس ..

ولا يكون هذا منه ﷺ إلاّ لبيان أمر مصيريّ ومهم ، ولا شيء أهمّ من تعيين القيادة من بعده ، وبها يجمع كلمة الأمّة على الهُدى والحق ، ويرحل ﷺ عنها مطمئنّاً على مصيرها .

* قدّم النبيّ ﷺ مقدّمة مهمّة ، ذكر فيها أصول الدّين الثلاثة التوحيد والنبوّة والمعاد ، وأخذ من الناس الإقرار بها جميعاً ، ثم طرَحَ عليهم خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ..

وهذا يعني أنّه ﷺ قرَن بين هذه الأصول وبين إمامة خليفته ، ويعرّفنا بأهميّة الرسالة التي حمّلها للأمّة في ذلك الاجتماع العظيم .

* قدّم النبيّ ﷺ الكلام في ولاية نفسه على النّاس ، ثم ثنّى بالكلام إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بتسلسلٍ واضحٍ يفيد أنّ ولاية علي عليه السلام من نفسِ نوعِ ولايته ﷺ ، وهذا ما يكون بأمر الله سبحانه وتعالى ، ولهذا فقد قال ﷺ مؤكّداً على أهميّة هذا الحدث ومصيريّته : فَليبلّغِ الشاهدُ الغائبَ .

تمام الدّين ..

قطع النبي ﷺ آمال المنافقين والمتربّصين بتنصيبه أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو الخليفة القوي الجدير بالولاية الكبرى ، المعروف بالسّوابق الجهاديّة والإيمانيّة المشرقة ، وفوّت ﷺ الفرصة على المعارضين لرسالته وخيَّب آمالهم وضَمِنَ بقاء الدين ، وأكملَ نعمة الإسلام على الأمّة ..

فنزل قول الله تعالى بعد حادثة الغدير : ﴿اليَوْمَ يئسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِن دينكُمْ فَلاَ تَخْشَوهُمْ وَاخْشَونِ اليومَ أكمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلام دِيناً﴾ [1].

(١) روى نزول الآية في الغدير : أبو سعيد الخدري وزيد بن أرقم وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو هريرة ومجاهد المكي ، وراجع كتاب الولاية لأبي جعفر الطبري وتاريخ بغداد ج ٨ والدر المنثور ٢/ ٢٩٥ وتفسير الفخر الرازي ٣/ ٥٢٩ .

الدّرس السّابع

- تعيين الإمام .
- مهام الإمام .
- عصمة الإمام .
- ائمة المسلمين .
- الإمام المهدي .
- اسباب الغيبة .
- طول العمر .
- الرّجعة .

[تتمّة] رابع الأصول

الإمامة

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾

تعيين الإمام

مسألة خلافة النبي ﷺ مسألة إلهيّة ليست بيد غيره إطلاقاً ، وليس لأحد خيارٌ فيها أبداً ، وكان النبيّ ﷺ في مكّة وقبل أن يهاجر

إلى المدينة فيشكّل حكومته فيها .. يرى أنّ الخلافة مسألة إلهيّة يعود أمر البتّ والتعيين فيها إلى الله تعالى وحده ..

فعندما أتى رئيس قبيلة بني عامر إلى رسول الله ﷺ في موسم الحج قال له : أرأيتَ إن نَحنُ بايعناكَ على أمرِك ، ثم أظهرَكَ اللهُ على من خالَفَك ، أيكونُ لنا الأمرُ من بَعدك ؟

قال ﷺ : الأمرُ لله يَضَعُهُ حيثُ يَشاء [1].

ولو كانت الخلافة متروكةً للنّاس واختيارهم لقال ﷺ أنّ الأمر متروكٌ للأمّة بعدي .. أو للمسلمين .. أو لأهل الحلّ والعقد .. أو للشورى .. لكنّه قال : الأمر لله .. فطابق كلامُه كلام الله تعالى : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

وكان الصحابة يدركون مسألة النّص جيداً ، لكنّ مدرسة الخلافة التي زوَت حقّ أمير المؤمنين عليه السلام عملت بالنّص على طريقة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٢ .

أخرى ، فكان الخليفة السّابقُ ينصّ على الخليفة اللّاحق ! فمنّ المسلّمات التاريخيّة أنّ الخليفةَ الثاني عُيّن بنصٍّ من الخليفةِ الأوّل ، حتّى أنّ بعض الصحابة اعترضوا على هذا التعيين ، وكان الزبير بن العوام أحد المعترضين ، والخليفة الثّالث تمّ تعيينُهُ عن طريق الشّورى المؤلّفة من الستّة الذين عيَّنهُمُ الخليفةُ الثاني !

ففكرة الشّورى والانتخاب والرجوع للنّاس في أمر الخلافة لم تمُر في أذهان الصحابة مطلقاً ، وما يتداوله اليوم بعض الكتّاب والخطباء إنّما هو من تبريرات العُلماء الذين يلتمسون الدّفاع عن مدرسة الخلافة التي زوَت حقّ أمير المؤمنين عليه السلام ليس إلاّ ..

ولمّا جُرِحَ عمر .. أرسلت عائشة رسالةً له عن طريق ولده عبد الله : يا بُنيّ ، أبلغ عمرَ سلامي ، وقل له : لا تَدَع أُمّة محمد بلا راع ، استَخلِف عَلَيهم ، ولا تَدَعهُم بَعدَك هَمَلاً ، فإنّي أخشى عَلَيهمُ الفِتنَة .

فأتاهُ ولدُه وحثّه على تعيين الخليفة قائلاً : لو كان لك راعي إبِل ثم جاءَك وتَرَكَها ، لرأيتَ أن قدْ ضَيَّعَ ، فَرِعايةُ النّاسِ أشدُّ ![1] .

مهام الإمام

يقوم الإمام عليه السلام بمهام ووظائف النبي صلى الله عليه وآله وسلم .. إلاّ أنّه لا يتلقّى الوحي ، **فمن أهم مهامّه ..**

١ . **بيان القرآن الكريم** : ببسط معانيه وتقريبه إلى الأفهام وتفسيره وتأويله وحلّ مُعضلاته وبيان مقاصده ، وهي مهمّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم**﴾ .

٢ . **بيانُ الأحكام الشرعيّة** : فهو العالم بالكتاب والسنّة ، والقائم على الدّين والمعتمد في بيان مسائله المتشعّبة ، وهذه إحدى مهام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً .. إذ كان يبيّن الأحكام بصورة تدريجيّة بحسب الحوادث وبحسب حاجة النّاس إلى بيانها ، وهذا الحال يقتضي استمرار الحاجة

(١) راجع الكتابين : الإمامة والسياسة ١/ ٢٨ وحُلية الأولياء ١/ ٤٤.

إلى بيان الأحكام ، فقد يستجد من الحوادث ما لم يبيّن ﷺ حكمها في حياته ، والحاجة متنامية إلى البيان قطعاً بعد وفاته ، وبيان الأحكام في عهدة الإمام العالم .

٣. **حفظ الأمّة من الانحراف** : فقد كان النبي ﷺ حصن الحق وملجأ الأمّة الفكري ، والمانع من تطرّق الانحرافات الفكريّة والأخلاقيّة والعقائديّة والسّلوكيّة ، ولابدّ من إمام يواصل هذا النهج ليحفظ الأمّة من التشتّت المذهبي والخلاف الدّيني والفكري .

٤. **الجواب على أسئلة الأمّة** : تتجدّد الحاجة للسؤال عن أحكام الدّين والمعارف الإسلاميّة المختلفة ، وكان جواب هذه الأسئلة من مهام النبي ﷺ الهامّة ، ولابد من إمام يتصدّى لجواب الأسئلة ، ويحفظ الأمّة من الجهل .

٥. **إقامة العدل** : الحكم بالموازين الإلهيّة لإقامة القسط والعدل والأمن العام ، لتنتظم الحياة الرّغيدة في المجتمع الإسلامي ، من أهم مهام النبي ﷺ والإمام الذي يخلّفه على الأمّة .

٦. **حفظ الثّغور** : الدولة الإسلاميّة بحاجة إلى الحماية الدائمة لحدودها وثرواتها من الغزاة والطامعين ، وهو من مسؤوليات النبي ﷺ ومن مسؤوليّات الإمام من بعده .

وهذه مهام تحتاج إلى قائد خبير ، يكون موضعَ عناية الله تعالى الخاصّة ، ويكون حاملاً للعلوم النبويّة ، ويكون مصوناً من كلّ خطأ وزلَلٍ ، ومعصوماً من كلّ ذنبٍ ، ليملأ الفراغ الذي أحدثه غيابُ النبي ﷺ ، وتشخيص الإمام الفاضل الذي يتحلّى بالمؤهّلات اللازمة خارجٌ عن حدود علم وقدرة الأمّة قطعاً ، ولا يمكن معرفته إلاّ باختيار الله تعالى وحده ، ومن خلال النّص من النبي ﷺ ..

كما أنّه لا يمكن لا للنبي ﷺ ولا للإمام عليه السلام أن يقوم بتلك المهام الجِسام من دون طاعة الأمّة وانقيادها إليه .

أمّا تلك الأحداث المؤلمة التي عقَبت وفاة النبي ﷺ فليس سببها تقصيره في أداء وظيفته .. ولا لأنّ المسلمين يفتقدون الأطروحة الحكيمة لإدارة الأمّة ، بل كان سببها أنّ بعضَ أفراد الأمّة

رجَّحُوا نَظَرَهم على نَظَر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقدّموا مصالحهم الشخصية على أمرِ الله تعالى وأمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم .

عصمة الإمام

يقوم الإمام عليه السلام بمهام النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلّها ، إلاّ أنّه لا ينزل عليه الوحي ، وعليه .. فإنّه قائد استثنائي ، وهناك مهامٌّ أخرى منوطةٌ به ، وكلّها وظائف خطيرة تستدعي دقّة وقدرة تفوق المستوى الطّبيعي عند البشر ، فالإمام عليه السلام يحتاجُ إلى ضمان يعصِمه من الخطأ والذّنب ، شأنه في ذلك شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هذا المنطلق قالت الشيعة بعصمة الأئمة الطّاهرين عليهم السلام ، وبغيرها تقع الأمّة في الظلال والانحراف .

وقد دلّت الأدلّة على عصمة الإمام عليه السلام .. منها :

١ . **آية التطهير** : تعلّقت إرادة الله تعالى الحتمية بطهارة أهل البيت عليهم السلام عن الرجس ، كما في قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ .

تقريب الاستدلال : في هذه الآية علّق الله تعالى إرادته الخاصّة بطهارة أهل البيت عليهم السلام من أي نوع من أنواع الرّجس ، وإرادته لابدّ أن تتحقّق ، فإذا تحقّقت لزم عصمتهم من الذنوب والمعاصي ، فتطهيرهم من الرجس هو تطهيرهم من أيّ نوع من أنواع القذارة الفكرية والرّوحيّة والعمليّة التي من أبرزها المعاصي والذُّنوب .

وبما أنّ هذه الإرادة تعلّقت بأفراد خاصّين فهي إرادة تكوينيّة لا يتخلّف معها المراد ـ وهو العصمة عن الذّنوب والخطأ ـ أبداً ..

ولو كانت إرادة تشريعيّة لشملت كلّ المسلمين ، ولتخلّف العصمة المُرادة عنهم لعصيانهم لله تعالى في بعض الذنوب ، ولم يكن هناك داعٍ لتخصيص أهل البيت عليهم السلام بهذه الآية .

٢. **حديث الثّقلين :** يدلّ حديث الثقلين على أنّ أهل البيت عليهم السلام عِدلُ القرآن الكريم في خُصوصيّاته وشؤونه ، وشأنهم شأنه في الصّيانة من الخطأ والزّلل بدلالة الحديث ، وقد صرّح الحديث على أنّ الأمّة لو تمسّكت بهما لن تظل أبداً ..

وهـذا لا يكـون إلاّ بعـصمة العـترة عليهم السلام ، ولـو كـانوا غـير معصومين لضلّوا وأضلّوا ، وحاشاهم من ذلك .

٣. **حديث السفينة** : الذي شبّه النبـي صلى الله عليه وآله أهـلَ بيتـه عليهم السلام فيـه بسفينة نوح ، ودلالة الحديث تدلّ على أنّ من اتبعهم وأطاعهم نجا ، ومن تخلّف عنهم غرق وهوى ، وهـذا لا يكـون إلاّ بعـصمتهم عليهم السلام كما تقدّم .

ائمة المسلمين

يُعرف الإمام عليه السلام بنصّ النبي صلى الله عليه وآله على إمامته ، أو بنصّ الإمام السّابق عليه ، وقد نصّ النبي صلى الله عليه وآله عـلى أئمـة أهـل البيـت عليهم السلام كـما ونصّ الإمام السّابق على اللاّحق ..

ووردت في أوثق المصادر السنيّة أحاديث تـشيرُ إلى وجـود اثنـي عشر خليفة ، فلم يقتصر بيان النبي صلى الله عليه وآله على النصّ على أمير المؤمنين

عليه السلام وحدَه، بل تجاوز بيانه إلى كلّ الأئمة الطّاهرين عليهم السلام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا يَزالُ الدّين منيعاً إلى اثني عَشَر خَليفة [1].

وهؤلاء الأئمة الذين تتوقّف عليهم عزّة الإسلام هم أئمة الشّيعة من أهل البيت عليهم السلام، فهذه الأوصاف وهذا العدد لا ينطبق على غيرهم أبداً، وهذا أمرٌ في غاية الوضوح .. وهم:

١. أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

٢. الإمام الحسَن بن علي المجتبى عليه السلام .

٣. الإمام الحسين بن علي سيدُ الشهداء عليه السلام .

٤. الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام .

٥. الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام .

٦. الإمام جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام .

---

(١) صحيح البخاري ٩/ ٨١، باب الاستخلاف، وصحيح مسلم ٦/ ٣، كتاب الإمارة، ومسند أحمد ٥/ ٨٦ـ١٠٨، ومستدرك الحاكم ٣/ ٨١.

٧. الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام .

٨. الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام .

٩. الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام .

١٠. الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام .

١١. الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام .

١٢. الإمام محمّد بن الحسن المهدي عليه السلام .

عليهم أفضل الصلاة وأزكى السّلام .

وروى الخزّاز القمّي في كفاية الأثر بإسنادٍ يرفعه إلى ابن عباس قال : قدم يهودي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال له نعثل فقال : يا محمد إني أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين ، فإن أنت أجبتني عنها أسلمت على يدك .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : سل يا أبا عمارة ..

ـ فسأله عن أشياء ، وأجاب عنها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فـ ـ

قال : صدقت يا محمد ، فأخبرني عن وصيك من هو ؟ فما من نبيٍّ إلاّ وله وصي ، وإن نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون .

فقال ﷺ : نعم ، إن وصيّي والخليفة من بعدي علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبعده سبطاي الحسن والحسين ، تتلوه تسعة من صلب الحسين ، أئمة أبرار .

قال : يا محمد ، فسمّهم لي ؟

قال ﷺ : نعم ، إذا مضى الحسين ، فابنه علي ، فإذا مضى فابنه محمد ، فإذا مضى فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فبعده ابنه الحجة بن الحسن بن علي عليه السلام ، فهذه اثنا عشر إماما على عدد نقباء بني إسرائيل .

قال : فأين مكانهم في الجنة ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم : معي في درجتي .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وإنك رسول الله ، وأشهد أنهم الأوصياء بعدك ، ولقد وجدت هذا في الكتب المتقدمة ، وفيما عهد إلينا موسى عليه السلام : إذا كان آخر الزمان يخرج نبي يقال له أحمد ، خاتم الأنبياء لا نبي بعده ، يخرج من صلبه أئمة أبرار عدد الأسباط .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا عمارة أتعرف الأسباط ؟ قال : نعم يا رسول الله إنهم كانوا اثني عشر .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : فإن فيهم لاوي بن أرحيا .

قال : أعرفه يا رسول الله ، وهو الذي غاب عن بني إسرائيل سنين ثم عاد فأظهر شريعته بعد دراستها وقاتل مع فريطيا الملك حتى قتله .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : كائن في أمتي ما كان من بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة ، وإن الثاني عشر من ولدي يغيب حتى لا يرى ، ويأتي على أمتي زمن لا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه ولا من

القرآن إلاّ رسمه ، فحينئذ يأذن الله له بالخروج فيظهر الإسلام ويجدد الدّين .

ثم قال ﷺ : طوبى لمن أحبهم وطوبى لمن تمسك بهم ، والويل لمبغضهم .

فانتفض نعثل وقام من بين يدي رسول الله ﷺ وأنشأ يقول :

صلى العليُّ ذو العُلى عليك يا خير البشر
أنت النّبيُّ المصطفى والهاشمي المفتخر
بك اهتدينا رشدَنا وفيك نرجو ما أمر
ومعشرٌ سمّيتَهم أئمةً اثنا عشر
حباهُمُ ربُّ العُلى ثمّ صَفَاهم من كدَر
قد فاز من والاهُمُ وخاب من عفّى الأثر
آخِرُهُم يشفي الظَّما وهو الإمام المنتظر
عترتُك الأخيارُ لي والتابعون ما أمر

من كان عنكم معرضاً فسوف تصلاهُ سقَر [1]

الإمام المهدي [ع]

الإمام الثاني عشر الحجّة المهدي المنتظر عليه السلام الحيّ الغائب في ستار الغيبة ، حتّى يأذن الله تعالى في ظهوره ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلِئت ظُلماً وجَوراً ، ويقيم حكومته العالميّة التي تشمل كلّ الأرض ، وهي من مسلّمات عقيدة الشّيعة الإماميّة ومتّفقات المسلمين ، وبلغت أحاديثه حدّ التواتر ..

فقد روى أحمدُ بن حنبل عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : لو لم يبقَ من الدنيا إلاّ يومٌ واحدٌ لطوّلَ الله ذلك اليوم حتّى يخرج رجلٌ من ولدي فيملأَها عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً [1] .

واتّفق الشّيعة والسنّة على فكرة الإمام المهدي عليه السلام وغصّت كتُب الحديث بذكره وعلامات ظهوره بلا مزيد عليه ، فظهوره في

(١) كفاية الأثر ص ١١ ، وإكمال الدين ١/ ٢٥٧ .

(١) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٩٩ و ٣/ ١٧ و ٧٠ .

مستقبل البشريّة أمرٌ مقطوعٌ به ولا يمكن التّشكيك فيه ، إلاّ أنّه وقع الخلاف في ولادته ، فذهبت الشيعة الإماميّة وفريق من محقّقي علماء أهل السنّة إلى ولادته عام ٢٥٥ هـ ، وأبوه الإمام الحسن العسكري عليه السلام ، وأمّه السيّدة نرجس عليها السلام وهو لا يزال حيّاً إلى هذا اليوم ، وذهب فريق من أهل السنّة إلى أنّه سيولد .

وغيبته عليه السلام لا تعني الانفصال عن المجتمع ، بل شبّهَها الأئمة الطّاهرون عليهم السلام بغياب : الشمس خلف السّحاب لا تُرى عينُها ، ولكنها تبعَث الدفأَ والنورَ إلى الأرض وساكِنِيها (١).

وهناكَ جمعٌ من الأتقياء الصالحين تشرّفوا بلقائه عليه السلام واستفادوا من إرشاداته وعلومه ، وحُلّت ببركته عليه السلام مشكلاتهم ومعضلاتهم ، ودفع الله تعالى به عليه السلام عنهم المكاره ، وكانَ لهُ في فترة الغيبة الصغرى

(١) كمال الدين للشيخ الصدوق ص ٤٨٥ .

سفراء يلتقون به ويوصلون له رسائل شيعته ويوصلون إليهم ردّه عليه السلام عليهم ..

والفقهاء المجتهدون في فترة الغيبة الكبرى هم نوّابٌ عامّون له عليه السلام ، لم يعيّنهم بأشخاصهم ، ولكنّ النّصوص الشرعيّة والأدلّة العقليّة دلّت على وجوب الرّجوع إليهم ، وهم حصون المذهب ، والمدافعون عن بيضته وعقيدته ، رحم الله الماضين منهم جميعاً وحفظ الباقين .

اسباب الغيبة

العلّة الأصليّة لغيبة الإمام المهدي عليه السلام من جملة الأسرار الإلهيّة الكبرى التي لا يمكن الوقوف على حقيقتها وكنهها ، وهي سنّة إلهيّة متكرّرة في تاريخ الأولياء عليهم السلام ، فموسى النبي عليه السلام غاب عن أُمّته أربعين يوماً قضاها في الميقات ، وعيسى النبي عليه السلام غاب عن أنظار أُمّته كي لا يصل أعداؤُه لقتله ، وغاب يونس النبي عليه السلام عن قومه مدّةً من الزَمان ..

إذن .. غيبة الإمام المهدي عليه السلام سنّة إلهيّة مسبوقة ، ولا يمكن أن تكون الغيبة مبرّراً لنكرانه عليه السلام مهما طالت ، لأنّ ظهوره الحتمي ممّا ثبت بالتّواتر القطعي .

ويمكن لنا بعد التأمّل في كلام المعصومين عليهم السلام أن ندرك بعض أسرار الغيبة ..

* لمّا شاء الله تعالى أن يُحقّق بالإمام المهدي عليه السلام الأمنيّة الكبرى ببسط العدل على الكرة الأرضيّة ، كان لابدّ أن تمرّ مدّة كافية تصل معها العقليّة البشريّة إلى الكمال المنشود ، وتتهيأ النفوس لاستقبال أمر الله تعالى بشوق ورغبة ، ولو لم يغِب عليه السلام وقام بنهضته قبل حصول المقدّمات اللاّزمة كان مصيره مصير آبائه الطّاهرين عليهم السلام من القتل قبل تحقّق ذلك الهدفُ العظيم ..

فقد رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام : إنّ للقائم غيبة قبل ظهوره .

قال الراوي : قلتُ : ولِمَ ؟

فقالَ عليه السلام : يخاف ، أي القتل [1].

* تعرّضت بعض الروايات إلى وجهٍ آخر لسرّ غيبته عليه السلام وهو تمحيص النّاس واختبارهم في عصر غيبته ، وبه يُعرف ثباتهم على الحق والإيمان ، ومدى استقامتهم على العقيدة .

طول العمر

قام البرهانُ على أنّ وجود الإمام لُطفٌ من ألطاف الله الكبرى ، لكونه سبباً لِهداية الناس ، فإذا آمن به النّاس والتفّوا حوله انتفَعوا بآثار وجوده ، وإلاّ حرموا أنفسهم من نعمة وجوده الشريف ، فيكونون هم مَن ظلموا أنفسهم بالإعراض عنه ..

ومن المسلّمات أنّه عليه السلام وُلد عام ٢٥٥ هـ ، فيكون عمره الشريف قد تجاوز أحَدَ عشر قرناً ، ومع إيماننا بقدرة الله تعالى فإنّ طول عمره الشريف ليس أمراً غريباً ، فمن أنكره لطول عمره عليه السلام فإنّه ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ﴾ .

---

(١) كمال الدين للشيخ الصّدوق ص ٤٨١ .

هذا .. وقد ذكر القرآن الكريم بعض المعمّرين .. ذكَر أن نوحاً عليه السلام عاشَ في قومه ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً ، وهو تعالى القادر أن يحيي يونس عليه السلام في بطن الحوت إلى يوم القيامة لو لم يكن من المسبّحين ..

فهل يتعسّر عليه سبحانه أن يطيل عمر وليّه للمهمّة الكبرى هذه الفترة من الزمن ! إنّ هذا سهلٌ يسيرٌ عليه تعالى .

الرّجعة

عقيدة الرّجعة من عقائد الشيعة المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام ، والرّجعَة في اللغة تعني العَودة ، والمقصود منها عودة جماعة من الأُمّة الإسلاميّة إلى الحياة عند ظهور الإمام المهديّ عليه السلام ، والقرآن الكريم شاهدٌ على وجودها في الفكر الإسلامي ..

قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَيَومَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاّ من شاءَ الله وكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرينَ﴾ .

لاحظ .. تتحدّث الآية الأولى عن إحياء فريق خاص ، بينما تتحدث الآية الثانية عن إحياء جميع الناس ، وهذا يكشف أنّ الإحياء الأوّل هو غير الإحياء في يوم القيامة ، وإنّهما يختلفان ، فالقرآنُ يتحدَّث عن يومين ، فهناك حَشرين وإعادتين إلى الحياة بعد الموت ..

وتؤكّد الرّوايات المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام على الرجعة ، وتوقيتها فيها بعد ظهور الإمام المهدي عليه السلام وقبل يوم القيامة ، وعودة جماعة من الصالحين والظالمين قبل يوم القيامة ليس عجيباً لوقوعه في الأمم السالفة ، وليس مخالفاً لحكم العقل ولا هو معارضٌ للنقل ، كما هو واضح في قصّة أصحاب الكهف وإحياء المقتول من بني إسرائيل بواسطة بقرة بني إسرائيل وإحياء عزير بعد مائة عام وموارد أخرى كثيرة ..

فالرَّجعة مظهرٌ مصغَّرٌ للقيامة النهائية الحقيقيّة الكبرى التي يُحشَر فيها الناسُ أجمعون، وقد بَلَغت رواياتُ الشيعة في هذا المجال حدَّ التَّواتر، وتفاصيلها مطوّلة في الكتب المختصّة.

الدّرس الثّامن

- المعاد .
- وقفات قرآنيّة .
- عالم البرزخ .
- يوم القيامة .
- الشّفاعة .

خامس الأصول

المعاد

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

المعاد

تتفق الشّرائع السماويّة على الإيمان بيوم القيامة ، فعقيدة التّوحيد والمعاد وعالم ما بعد الموت قائمةٌ في أصول جميع الأديان السماويّة ، والاعتقاد بالقيامة من أهم أركان الإيمان في الإسلام ..

وقد اهتمّ القرآن الكريم بهذه المسألة بشكلٍ واضح ، وفي أكثر من مورد ، وتعدّدت أسماء القيامة فيه ، فالإيمان بالقيامة هو دافع الإنسان للإيمان والعمل وهو رادعُه عن الانحراف والكسل .

ولقد استفاد العلماء من القرآن الكريم في إقامة الأدلّة العقليّة على ضرورة المعاد والحياة ما بعد الموت ، فمن هذه الأدلّة القرآنيّة ..

١ . الله تعالى هو الحقّ المطلق ، وفعلُهُ كذلك حقٌّ ، وهو منزّهٌ عن الباطل واللغو والعبث ، وخلق الإنسان في هذه الدّنيا من دون وجود حياة أخرى خالدة باطلٌ ولغو وعبث لا يمكن ، وقد قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ .

٢ . عدلُ الله تعالى يوجب أن لا يكون جزاء المحسنين والمسيئين على حدّ سواء ، والعدلُ يقتضي التفريق في معاملتهما ، ولا يمكن تحقّقُ العدالة الكاملة ثواباً وعقاباً في هذه الحياة الدّنيا الفانية ، لأنّ لبعض الأعمال جزاء لا يسعه نطاق هذا العالم ، فلابدّ من وجود عالم آخر متّسع لإمكانات غير متناهية كي يتجلّى فيه عدل الله الحقيقي ..

مثال : هناك من جاد بنفسه في هذه الدنيا ، فاستشهد في سبيل الحق والفضيلة ، وهناك من قتل هذا المؤمن ، فسقاً وعلوّاً وظلماً ، ولا يمكن أن تتسّع الدّنيا لثواب هذا وعقاب ذاك ، فلابدّ من أن يجزيان بعدلٍ في عالم الآخرة .

قال تعالى : **﴿أَم نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرضِ أَم نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** ..

وقال تعالى : **﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾** .

وقفات قرآنيّة

تعرّض القرآن الكريم إلى مسألة المعاد في عدّة آيات ، منها ..

* أكّد القرآنُ الكريم على قدرة الله تعالى المطلقة ليأخذها المعترضون على المعاد بعين اعتبارهم ، فقال تعالى : **﴿إِلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾** .

* ذكّر بأنّ القادر على خَلق الإنسان ابتداءً قادرٌ على إعادته ولملمة رُفاته وإرجاع الرّوح إليه مرّة ثانية ، قال تعالى : ﴿قلِ الّذي فَطرَكُم أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .

* قرّب صورة إحياء الإنسان بعدَ موته بتشبيهها بإعادةِ الحَياة إلى الأرض اليابسة في فَصل الرّبيع ، بهطول المطر وولوج الحياة إلى الطبيعة من جديد ..

قال تعالى : ﴿وَتَرى الأرضَ هامِدَةً فَإذا أنْزَلْنا عَلَيها الماءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتَتْ من كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذلِكَ بأنّ اللهَ هُوَ الحقُّ وأنّه يُحيي الموَتى وأنّه على كلّ شَيءٍ قَديرٌ * وأنّ الساعةَ آتِيةٌ لا رَيبَ فِيها وأنّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القبُور﴾ .

* أجاب على من استُشكِلَ عليهِ فهمَ المعاد وكيفيّة إعادة العظم الرّميم إذا بَلَى وضاع في عناصر الأرض ، فقال تعالى : ﴿قدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيْظٌ﴾ ..

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ .

* صرّحت الآيات والأحاديث بكون المعاد جسماني وروحاني ، فالله تعالى يحشر الإنسان بجسمه وروحه ، فيثاب الإنسان ويعاقب ببدنه وقواه الحسيّة ، كما يثاب ويعاقب كذلك بالرّاحة والألم الرّوحيّين ، قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فرضوانه من أعظم لذائذ الصالحين ، وقال سبحانه : ﴿وأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ والحسرة من أعظم آلام المجرمين .

عالم البرزخ

الموت قنطرة إلى النشأة الأخرى ، وهو الجسر الذي يأخذ النّاس إلى الآخرة ، والموت لا يعني الفناء وانتهاء الحياة ، بل هو السبيل إلى الحياة الخالدة ، وبين نشأة الدّنيا ونشأة الآخرة نشأة ثالثة تسمّى

البرزخ ، ينتقل إليها الإنسان بموته ويبقى فيها حتى قيام الساعة ، ولا زالت مساحة الجهل أكبر من مساحة العلم بتفاصيلها ، وقد بلغنا ما بلغنا عنها عن طريق القرآن الكريم والحديث الشّريف ..

وتبدأ حياة البرزخ من ساعة قبض الرّوح وفصلها عن البدن ، فإذا أودع الإنسان في قبره كان في مدارج تلك النشأة ، فيأتي له ملائكة الرحمن فيسألونه عن التوحيد والنبوّة والإمامة وسائر اعتقاداته ، والسؤال في القبر حقٌّ ، وبناءً على إجابته يكون عالم البرزخ مظهراً للرحمة أو مصدراً للعذاب .

قال الشيخ الصدوق رحمه الله : اعتقادُنا في المساءلة في القَبر أنّها حقٌّ لابدَّ منها ، فمن أجابَ بالصواب فاز برَوح ورَيحانٍ في قَبره وبجَنّة النعيم في الآخرة ، ومَن لم يُجِب بالصَّواب فَلهُ نُزُلٌ من حميمٍ في قبره وتَصلِيةُ جَحيم في الآخرة[1].

---

(١) الاعتقادات للشيخ الصّدوق ، الباب ١٧، ص ٣٧ .

وقال الشيخُ المفيد رحمه الله :

جاءَت الآثارُ الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ الملائكة تنزل على المقبُورين فتسألُهم عن أدْيانهم ، وألفاظ الأخبار بذلك متقاربة ، فمنها أنّ مَلكَين لله تعالى يُقالُ لهما ناكر ونكير ينزلان على الميّت فَيسألانِهِ عن رّبه ونبيِّه ودينِه وإمامِه ، فإن أجابَ بالحق سَلَّموهُ إلى ملائكة النّعيم ، وإن ارتُجَّ عليه سَلَّموهُ إلى ملائكةِ العَذاب [١].

وقال المحقّق نصيرُ الدين الطوسي رحمه الله : وعذابُ القبر واقعٌ لإمكانِه وتواتُرِ السَمعِ بوقوعِه [٢].

هذا ، وقد تناول القرآن الكريم في آياته حياة البرزخ معرّفاً ملامح تلك النشأة ..

إذا وقف المحتضر على مصيره الأسود الذي ينتظره تمنّى أن يعود إلى الدنيا ليتدارك ما فاته منها ، قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذا جَاءَ أَحَدَهُمُ

(١) تصحيح الاعتقاد للمفيد ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) كشف المراد : المقصد ٦ ، المسألة ١٤ .

المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيَما تَرَكْتُ﴾ ويأتيه الجواب المخيّب لأمله : ﴿ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائلُها ومِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

ويحكي القرآن الكريم مصير المجرمين في عالم البرزخ ، فهم يُعرضون على الّنار صباحاً ومساءً ، حتّى يقتحمون النّار الكبرى ، قال تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوَّاً وعَشِيَّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ .

ويصف حياة الشهداء في تلك النشأة بقوله : ﴿ولا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلِكنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ .. وقوله : ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ويَسْتَبشِرُونَ بالَّذينَ لَمْ يَلْحَقوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ ألاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

يوم القيامة

يعيد الله سبحانه الموتى إلى الحياة ، ثم يحشرهم ليحاسبهم على أعمالهم ، وتدلّ الآيات القرآنيّة والأحاديث الشّريفة على أنّ كلّ

إنسان يتسلّم صحيفته بيده ، فإن كان مُحسناً تسلّم صحيفته بيمينه ، وإن كان مسيئاً تسلّمها بشماله ، تضمّ هذه الصحيفة كل الصغائر والكبائر التي عملها في دار الدّنيا ..

وتشهد على الإنسان شهودٌ من نفسِه ، وهي أعضاؤه وجوارحه التي اقترف بها عملَه ، وتشهد عليه شهودٌ من خارجه ، تشهد عليه بأعماله التي قام بها في عالم الدّنيا ..

والله سبحانه وتعالى أوّل الشّاهدين ، ويتلوهُ نبيُّ الأمّة صلى الله عليه وآله وسلم ، وصفوة الخلق وهم أئمة الحق عليهم السلام ، والملائكة ، والأرض ، وتتجسّم نفس الأعمال فتكون شاهداً على الإنسان .

وتُقام موازينُ العدل ليُحاسب الإنسانُ على أعماله يوم القيامة ، وبها توزن الأعمال فيصل الإنسان إلى مصيره الذي يستحقّه في إزاء عمله على وجه الدّقّة ، كما قال تعالى : ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شيْئاً وإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِها وَكَفَى بِنَا حاسِبين**﴾ .

وأمام الجميع جسرٌ منصوب على جهنّم، أحدّ من السّيف وأدقّ من الشّعرة، يعبر منه النّاس بلا استثناء، وهو المعروف بالصّراط، فإذا انتهى النّاس من الحساب وعرفوا مصائرهم يُعطى رسول الله ﷺ لواء الحمد، فيتحرّك أمام أهل الجنّة بأهل الجنّة.

وفي الروايات ذكر حوض الكوثر في المحشر، وعليه يقف رسولُ الله ﷺ ويسقي الصّالحين من الأمّة من ماء ذلك الحوض بيده ﷺ الكريمة وأيدي أهل بيته الطّاهرين عليهم السلام فمن شربَ منه لا يظمأ بعدها أبداً.

الشفاعة

الشّفاعة يوم القيامة من العقائد الضّروريّة، وتشمل جماعة لم يقطعوا الصلة بالله تعالى والدين رغم تورّطهم بالذنوب، فتشملهم الرّحمة الإلهيّة بواسطة الشّفعاء الذين أذن الله تعالى لهم بالشفاعة، وقد أشار القرآن الكريم إلى أصل المسألة فقال: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

وجاء في التفسير أن المقام المحمود المقصود في قوله تعالى : ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ هو مقامُ الشّفاعة الثابتُ للنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ..

وورد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي [1].

وعلّة اختصاص الشّفاعة بمرتكبي الكبائر هو أنّه تعالى وعَد في القرآن الكريم بغفران السّيئات الصغيرة إذا اجتُنبت الكبائر ، ويكرم الله تعالى أولياءَه فيُجري رحمتَه على أيديهم يوم القيامة ..

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : أُعطيتُ خمساً .. وأعطيتُ الشفاعَة ، فادّخرها لأُمّتي فهي لمَن لا يُشرك بالله [2].

ولا شكّ في أنّ للأئمة الطّاهرين عليهم السلام هذه المنزلة الكبرى بإذن الله تعالى ، وهم شفعاء الخلق في الدّنيا والآخرة ، وكتب الحديث مملوءة بما يدلّ على ذلك .

(١) من لا يحضره الفقيه / ٣٧٦ .

(٢) الخصال للشيخ الصدوق ، باب الخمسة ، صحيح البخاري ١/ ٤٢ .

وهنا نقطةٌ مهمّة ..

وهي التأكيد على جواز طلب الشّفاعة في الدّنيا ممّن أذن الله تعالى له بالشفاعة في الآخرة ، كالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والعترة المطهّرة عليهم السلام ، فقولنا : يا رسولَ الله يا وجيهاً عند الله اشفع لي عند الله ، أو اشفعي لي يا فاطمة .. جائزٌ بلا شك .

وكان هذا محلّ اتفاق المسلمين إلى القرن الثامن ، حتّى أنكره بعض المتوهّمين ، في حين أنّ الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة وسيرة المسلمين المستمرة تقرّه وتشهد بجوازه ..

وكيف لا يجوز الاستشفاع بمن أذن الله تعالى له بالشفاعة وليست الشّفاعة إلاّ دعاء من الوليّ ، فهل يحرم على الإنسان أن يسأل الدّعاء من مؤمن عادي ! فكيف يحرم سؤاله من الأولياء الأحياء في ظلّ رحمة الله تعالى ورضوانه !

وللتّوضيح : نقل ما رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ : ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلاّ شفَّعهُم اللهُ فِيه [1].

وشفاعة هؤلاء المؤمنين هي دعاؤهم للميّت ، وفي التّاريخ شواهدٌ على طلب الصحابة الشفاعة من النبي ﷺ ، فالترمذيّ يروي عن أَنَس بن مالك أنّه سأل النبيَّ ﷺ أن يشفع له يوم القيامة ، فقال ﷺ : أنا فاعل ، قلتُ : فأَينَ أطلبُك ؟ فقال : على الصّراط [2].

وإذا كانت الشّفاعة تعني طلب الدّعاء من الشّفيع فهذه حقيقةٌ واضحة في القرآن الكريم .. فقد طلب أبناء يعقوب عليه السلام من أبيهم أن يستغفرَ لهم وقد وعَدَهم بذلك ووفى بوعده في قوله تعالى : ﴿قَالُواْ يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ * قَال سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ

(١) صحيح مسلم ٣/ ٥٤ .

(٢) صحيح الترمذي ٤/ ٤٢ باب ما جاء في شأن الصراط .

رَبِّي﴾ فهو شفيعهم لله تعالى .. وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاءوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ فالرسول ﷺ شفيعٌ في الدّنيا قبل الآخرة ، وللاستغفار بحضرته واستغفاره أثر الاستجابة القطعي ..

وقال تعالى في شأن المنافقين الذين يصدّون عن الاستغفار بحضرته ﷺ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْاْ رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ، فالاستشفاع به ﷺ علامة الإيمان .

وهذا تمام القول الثّابت في عقائد الشّيعة الإماميّة

تمّ الفراغ منه يوم شهادة الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء عليها السلام

يوم الاثنين ، ١٣ جمادى الأولى ١٤٢٩ هـ

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّد الخلق ، الشفيع النذير ، السّراج المنير ، سيّدنا محمد ، وآله الطّيّبين الطّاهرين ، الحجج الميامين .

محمّد جمعة بادي

Almofeed@hotmail.com



